فضل

تربية البنات

في الإسلام

محمد علي قطب

مكتبة القرآن

محمد علي قطب



مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة - ت: ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١



إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يُضلل فلا هادى له .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له المُلْك ولهُ الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير .

ونشهد أن سيدنا ومولانا « محمداً » عبده ورسوله ، إمام المرسلين ، وقُدْوة المصلحين العاملين ، عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ، صلاةً وسلاماً دائمين إلى يوم الدين .

وبعد ...

فهل (فَضْل) التَّرْبية مُعلَّق على البناتِ وحدهُنّ ؟ .

وهل المكرمة التى تلْحق الآباء منوطة ، بحُسْنِ توجيهِهِنّ وحدهُنَّ أيضاً ؟

إن من نافلة القول الجواب بالسَّلب ، لأنَّ التَّربية عموما مطلوبة ومأمُور بها ، دونما تمييز بين جنْس وآخر ، بين ذكر وأُنثى !! .

وهي بهذا تأخذ طابع المسؤولية الاجتماعية والكينونة الأسريّة ، فيتحتّم على الأبويْن (الزوج والزوجة) القيام بأدائها على أكمل وجْه وأحسن صورة ، لتؤدى غرضها من بَعْد في خلايا اجتماعية أُخرى ، كيْ ينتظم البناء العام .

إن المدلول اللغوي لكلمة (الفضل) ، الذي هو بمعنى الزيادة ، يُشير إلى ما في (الاهتمام) بتربية البنات من ضرورةٍ وأجْر وثواب .

ويُشير أيضاً إلى (القيمة) الإنسانية في الأُنثى ، من حيث وظيفتها الاجتماعية ، سواء كانت زوجة أو أُمّاً .

وهذا ما أعلنه الإسلام منذ أمدٍ بعيد ، وحثَّ عليه .

ولا نحبُّ ، أو نميل إلى اعتبار (المرأة) في الإسلام قضيّةً ، كما دَرَج على هذا السبيل بعض الكتاب الإسلاميين ، مدفوعين بغيْرةٍ وحميّة ، متسلحين بمنطق الحقّ والصِّدق ، إذ جرّهم إلى ذلك فتنة فكريّة وثقافية من فتن العصر الحاليّ المنكود ، وحمل لواءها أُرْهاط الدساسين والمفترين من أهل الغرب ، والذين استشرقوا أَوْ آستغربوا !!! .

ولنا من التاريخ قرينة ودليل ، وخير شاهدٍ .

إذ لم تَعْرف حقَب الإسلام الطويلة ، وعلى مدى قُرونٍ ، أزمةً اجتماعية حادة عُرفت بقضيّة المرأة ، اصطرعت فيها الأفكار ، أو تباينت فيها الآراء ، أو تَشنّجت فيها الأوْضاع ... وتعقّدت .

حتى فى العصور - القليلة - التى تدنى فيها المستوى السياسى ، وانحط المؤشّر الفكرى ، وتقهقرت فيها العقول !!!

حتى في العصور التي اشتهرت بعُصُور (الحريم) و (الجواري) لم يكُن للمرأة المسلمة (قضيّة) بالمعنى والحدود التى تعورف عليها في المجتمع الغربي .. ، سواء في القديم أوْ في الحديث .

وما من شكٍ - أبداً - في أن النظرة الأساسية التي اعتمدها الإسلام بالنسبة إلى المرأة ، من الناحية البشرية والإنسانية ، ثم تشريعه المستفيض فيما يتعلّق بكينونتها وعلاقاتها الاجتماعية ، قد رسمت الأُطر السليمة والصحيحة التي منعت ظهور ما يُسمى بالقضية على المنتوى الفردي المتميِّز للمرأة .

أضف إلى ذلك القيمة الكُبرى التي أُضفيت عليها ، بل جعلتْها في المستوي الاجتماعي أهمَّ بكثيرٍ من شخصيَّة الرَّجُل ، فهي المعوَّل عليْها في بناء الأُسْرة ، - الخليّة الاجتماعيّة الأولى - ، بصلاحها يصْلح المجتمع ، وبفسادها يفسد وينْهار .

لذا تعدَّت تربية البنات حدود المسئولية إلى حيِّزِ الأَجْرِ والْفَضْل ، والثواب الجزيل .

ومن هُنا أُحْببنا أن نخوض ميدان الرأْي ، ونُسْهم مع الداعين إلى إقامة ما انهار وتداعى من هيكليتنا الاجتماعية المسلمة ، وإنهاض المرأة المسلمة من كبْوتها المعاصرة ، في أسْلوب متوازنٍ لا تطْغى عليه

التقاليد ولا الأعراف ... ، أَوْ تجرفه تيّارات التحلُّل والإباحية ... و ... التقدميّة !! .

ونسأل الله تعالى أن يوفقنا ويُسدِّد خطانا ، ويهدينا سواء السبيل .

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله رب العالمين

المؤلف

صيدا في ١٥ رجب سنة ١٤٠٤
الموافق ١٧ / أبريل (نيسان)
سنة ١٩٨٤

توطئة

يرى « ابن خلدون » أنّ الشعوب الضعيفة المغلوبة على أمْرها تعاني دائماً من (عُقْدة تقليد القويّ) الذى تخضع لَهُ وتتأثّر إلى حدٍّ بعيدٍ بأفكاره وآرائه وسلوكه .

ولقد اعتُبر « ابن خلدون » من الناحية الفكرية التاريخية رائداً لِعلْم الاجتماع ، ولوْ أن هذا العِلْم قد أُخذ على يد « دُرْكايْم منْحى جديداً فقام على أُسُسٍ ماديةٍ بَحْتةٍ ، فكان « دُرْكايم » ثالث ثلاثةٍ هُمْ : « كارل ماركس » و « سيجموند فرويدْ » ، تحركت في أعماقهم يهوديَّتهم وحقْدهم على الأمم والشعوب لتدميرها عقائدياً وأخلاقيّاً واجتماعياً ، تساوُقاً مع روح نصوص « بروتوكولات حُكماء صَهْيون » .

وبناءً على صِحة نظرية « ابن خلدون » من حيْث التجربة الواقعية التاريخية ، والشاهد المعاصر ، فإنَّ عالمنا العربيّ والإسلامي الذى رزح ردْحاً من الزمن تحت وطْأة الاستعمار تارةً والانتداب تارةً أُخرى قد عاش (عُقْدة تقليد القوي) وتأثّر بها إلى درجة العبودية الفكرية والسلوك الاجتماعي في أوسع قطاعاتِه ، مما أدى إلى سلْبه تميُّز شخصيته المستقلّة .

ولقد تبدّى ذلك واضحاً مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، في مختلف شئون الحياة ، وها هي ذى (أمّتنا) الإسلامية الآن تُراوِح في مضمار الحضارة بيْن التخلُّف والنُمُوّ !!! .

ولقد كان مَوْضُوع المرأة كعنصر وجُزْئية اجتماعية أحد المواضيع التي تمَخض عَنْها (الاشتباك) بيْن القوي والضعيف ، والذي سبّب خللاً شديداً مُدمّراً في مُعطيات السُّلوك الاجتماعي المتميِّز لدى الضعيف المغلوب على أمْره ، فنَسي ما قدَّمت عقيدتُه وشريعتُه وفقهه على مدى التاريخ ، لهُ وللعالم بأسْره ، من أُسس سليمةٍ تُؤَدي إلى أرقي وأسمى أشْكال الحياة .

ولقد فَتح العالم العربي والإسلامي عيونه بعد خَدَر الهزائم والانحدار ، وتقْطيع أوصالِه إلى قطاعاتٍ سياسيةٍ وعُنْصريّة ومذهبيّةٍ ... و (أشكال) دُويلاتٍ مُصْطنعة ، بأسها بيْنها شديد .. ، فتح عيونَهُ على هزاتٍ تُزلزِل كيانه المتداعي ، في عملية إجهازٍ على جريحٍ مُثخن .. .

فكانتْ (قضية تحرير المرأة) !!! .

وانبرت إلى الساحة ألسنة وأقْلام تسرْبلت بالغيْرة المصطنعة ، رافعة شعار النهضة ، مدعومةً من وراء حجاب ، تضرب بمِعْول الكلمة في أساس ما تبقّى من هيْكل البناء ، لا ترقُب في ضميرها القوْمي التاريخي ، ولا في وجْدانها العقائدي إلّا ولا ذِمَّة .. .

وشطحت بها عبوديتها الفكْرية إلى حدّ الوقاحة الدنيئة في التهجُّم على الدِّين .... ، فُهيئت لها ، وجندت في سبيل نشر سمُومها كل وسائِل الإعلام ، وصفّق لها الجُهلاء والعملاء على حدٍّ سواء ، ومن ورائهم إبليسهم وشيطانهم .

ولعلّ « قاسم أمين » أبْرز الأسماءِ والأشخاص ، في المشرق العربي ، على هذا الصعيد ، وأكثرها جذْباً وتأثيراً .. ! .

ولستُ في هذه التوطئة بصدد مناقشة أفكار الرجُل ، ذلك أنّه أخذ قِسْطَه ممنْ عاصروه ، أو جاءوا بعده ، فأيّده في دعواه الكثيرون ، بعضهم في تطلعاتِه (التحريرية الإصلاحيّة) ، كما يرون ويشتهون ، وبعضُهُم في تبيان ما أخطأ الناس في فهمه من آرائه .. وآخرون عارضوهُ وشجبوهُ وردُّوا عليه افتراءاتِهِ فيما فقهوهُ من كتاباتِه .. .

ولكني أودُّ فقط — أن أبيّن أمراً غَفل عَنْه الطّرفان ، المؤيد والمعارض ، علَى حدٍّ سواء .

هُوَ : (التناقض) الذي كان ينطوي عليه فكره في محاولة التوفيق بيْن الدين وبيْن دعوى التحرُّر ، وراح يخبط في متاهات الكلمة والعبارة و.... الفكرة !! .

يقول « قاسم أمين » :

(المرأة : إنسان مثل الرجُل ، لا تختلف عنه في الأعضاء ووظائفها !!! ولا في الإحساس ولا في الفكْر ولا في كُلّ ما تقتضيه

حقيقة الإنسان من حيث هو إنسان ، إلّا بقدر ما يستدعيه اختلافهُما في الصِّنْف !!) .

ونقُول : بأن المرأة (إنسان) مثل الرجل ، فليس في هذا أدنى شك ، أما أنّها لا تختلف عَنْه في الأعضاء ووظائفها ، ففي هذا القوْل كُلّ المغالطة ، لأن التركيب (الفسيولوجي) للكينونة البشرية لدى كُلٍّ من الذكر والأنثى مُخْتلف ومُتباين ، بمعنى أن (الهرمونات) الذكورية و(الهرمونات) الأنثويّة أَصلٌ أصيل في الاختلاف الظاهر . . .

الرجل والمرأة ، كيانٌ بشريٌ ... صواب لا اختلاف فيه ، أما عَدَم الاختلاف في الأعضاء الجسدية فخطأٌ مَحض .

وها نحْنُ نُفاجأ في نَفْس الفقرة من كلام « قاسم أمين » بالتناقُض ، إذْ يقول : بأنه لا اختلاف في الشعور والإحساس بيْن الرجل والمرأة إلّا بقَدْر ما يستدعيه اختلافهما في الصِّنف !!؟ .

إذاً هُناك اختلافٌ في الصنف ... ، والعبارة واضحة مفهومة لا تحتاج إلى إطالة تحليل .

فكيف لا يكون اختلاف في الأعضاء ، مع وجود اختلاف في الصِّنْف ؟ .

ويقول :

(إذا فاق الرَّجُل المرأة في القوة البدنيّة والعقْليَّة فذلك إنما لأنّه اشتغل بالعملْ والفكر أجيالاً طويلة كانت المرأةُ فيها (محرومة) !!! استعمال القوتين المذكورتين و (مقهورة) !! على لزوم حالةٍ من الانحطاط تختلف في الشدّة والضعف على حسب الأوقات والأماكن ...) .

إنها دعوى مغالطة ... .

لأن التزامه المبدئي بـ (اختلاف الصنْف) قد طُوِي تحت جناح عدم الاختلاف في الأعضاء !! ؟ .

وقامت مغالطته الفكريّة على نَفس القاعدة الأصلية المسلَّم بها .

وها هُوَ ذا يعُود تلْقائياً إلى تقرير (اختلاف الصِّنف) من حيث الوظيفة الاجتماعية التي يضطلع بها كُل من الرجُل والمرأة في ميدان الأسرة ، فيقول :

(ففى رأيى ، أن المرأة لا يُمْكنها أن تُدير منْزلها إلا بَعْد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والأدبيّة ..) .

إذاً ... فالوظيفة الاجتماعية للمرأة (إدارة المنزل) بكلّ ما تقتضيه الإدارة من وعْي وإدراكٍ ومعرفة – من غيْر أن نُنكر ذلك ، أو نهضم الضرورة حقّها وقسْطها .

وإني لأتساءل : أيةُ قُوَّةٍ بدنيّة تستطيع المرأةُ أن تُمارِسَها وهي في آخر مراحلِ الحمل ، في الشهْر التاسع – مثلاً – !!! ، ومن الذي حَرمها أو قَهرها .. ؟ .

وأتساءَل أيْضاً : أيَةُ قُوَّةٍ عقليةٍ ، أو نَفْسيةٍ شعوريّة تتألّق لدى المرأةِ في حالة الحيْض والطَّمْث ، مدة محدّدة في كل شَهْر !!! مع الإقرار بأن الدراسات التجريبيّة قد أثبتت حالة الكدر والضيق والأرق عند المرأة خلال تلك الفترة ... ، فمن الذي (حَرَمها) و (قَهَرَها) ... ؟

ولا أودُّ أن أُطيل النقاش ، وأكتفي بما أسلفت .، .

ونعود إلى منطلقنا في (التوطئة) ، بأنّ الأمْر في (قضية المرأة) !!! في عالمنا العربي والإسلامي مع مطلع القرْن العشرين لا يعدو (التقليد) !! أو الإفساد المقصود !! .

ونحن لا نَفتئت على الحقيقة الإنسانية الفكرية الخالدة .. ، إذا ما قُلْت بأن الإسلام – والإسلام وحده ، في العقيدة والتشريع والسلوك – هو القمين والضامن لمجتمعنا أن يهتدي إلى الخيرْ والرَّشاد .. .

خصوصاً من زاوية : (تربية البنات) ومالها من فضائل .

الفصل الأول

المرأةُ في التّاريخ *

جولة في الأفق التاريخي ..

لأن المدخل إلى موضوع البحث : (فضل تربية البنات) بصورة متكاملة يقتضينا ذلك ؛ ولابُدَّ من وقفةٍ استطلاعية تتناول (المرأة في التاريخ) ؛ كيف كان يُنظر إليها كذاتٍ إنسانية ؟ وكيف كان يُنظر إليها بالنسبة إلى الوظيفة الاجتماعية التي خُلقتْ لها ؟ .

ولا نقصد بالتاريخ : الامتداد الإنساني الطويل إلى مبدأ البشرية فهذا أمر شاق وعسير ، وقد يخرج بنا عن إطار البحث وهَدفِهِ ولكننا نريد أَنْ نستخلص الموقف والرؤية من عُهُودٍ قريبةٍ من الإسلام ، قبل الميلاد وبعده ، فهذا ألصقُ بالبحْث وأهمّ للدَّرْس .

فلقد كانت المرأة في أوروبا – وفي العالم كُله – هملاً لا يُحْسبُ لهُ حساب ؛ وكان (العلماء) و (الفلاسفة) يتجادلون في أمرها ويتساءلون :

– هل لها رُوحٌ أم ليس لها روح ؟ .

– وإذا كان لها روح ! فهل هي رُوح إنسانيَّة أم حيوانية ؟ .

– وعلى فرْض أنها ذات روح إنسانية فهل وضعها الاجتماعي و [الإنساني] بالنسبة للرجُل هُو وضع الرقيق ؟ أم هو شيء أرفع قليلاً ؟ .

تلك أسئلة لم تُبتدع ، ولم تستنبط استنباطاً ، ولم نستحدثها نحن تجنياً ولكنها جدَلٌ قام زمناً واحتدم ردحا ، فكم من اجتماعٍ أقيم ومؤتمر عُقد ، ليُتساءَل فيه : هل المرأة إنسانٌ كالرجل ؟ وهل لها رُوح خالدة ، أو ليْس لها رُوح ولا خلود ؟ .

كان (الأثينيّون) – أصحاب الحضارات والمدنيات والفلسفات – يهدرون منزلتها ولا يعتبرونها إنساناً بل حيوانا يُباع ويُشرى ، فسلبوها – لذلك – وانتزعوا منها أهليَّةَ التصرُّف ، فهي لا تَصْلُح لشيءٍ إلا لخدمة البيوت واستيلاد الأطفال ، وهي أيضاً ليست في طُهْر الحيوان !!! بل هي : رِجْسٍ من عمل الشيْطان !!! .

وكانت عند بعض طوائف اليهود بمرتبة الخدم ، ولا ترثُ مع إخوتها الذكور ، ولأبيها أن يبيعها وهي طفلة قاصرة ودون سِنّ البلوغ .

وحتى في الفترات القليلة التي استمتعتْ فيها المرأة بمركزٍ [اجتماعي مرمُوق] عند الأثينيين أو عند الرومانيين ، لم يكن ذلك مزيّة للمرأة كجنْسٍ وصِنْف ، وإنما كان لنساءٍ معدوداتٍ بصفتهن الشخصية ، أو لنساء العاصِمَة (إسْبَرْطة) أو (روما) بوصفِهنَّ

[زينةً] للمجالس ، و[أداةً] من أدوات التَرف التى يحرص الأغنياء والمترفون على إبرازها زهْواً وإعجاباً ، ولكنها – أى المرأة – لم تكُنْ قطّ موضع الاحترام الحقيقيِّ لمخلوقٍ إنساني جديرٍ بذاتّية أن يكُونَ له كرامة ، بصرف النظر عن الشهوات التي تحببه لنفس الرجُل .

وظل الوضع كذلك في عهود الرّق والإقطاع في أوروبا – من بعد الميلاد بأجيال – والمرأة في جهالتها تُدَلَّل حيناً تدليل الترف والشهوة ، وتُهْمل حيناً كالحيوانات التي تأكل وتَشرب وتَحْمِل وتَلِد ، وتَعمل لَيْل نهار !! .

وهذا هو « ترتوليانوس »[1] – ويلقَّب بـ« ترْتليان » ؛ يقول في موعظةٍ له :

[أما تعلمنَّ أن كُلاً منكُنّ حوّاء ؟ إن حكم الله على جنسكُنَّ لا يزال قائماً في هذا العصر ، والجريمة بحكم الضرورة لا تزال قائمةً ... ، أنتُنَّ باب الشيطان ... ، أنتُنَّ الآكلات من الشجرة ... ، أنتُنّ أوّل من خالف الشريعة الإلهية .. !!!أنتُن اللائي هدمتُنَّ صورة الله بمثْل هذه السُّهولة !!!] .

إنها في نظره ونظر أمثاله (مطية الشيطان) و (مركب المعصية) ؛ و (العقرب الذي لا يتردَّدُ قطُّ عن لدْغ أى إنسان)

---

(١) (١٦٠ – ٢٤٥ م) علّامة مسيحي من كبار الكتبة المحامين عن الديانة المسيحية ضدّ الوثنيّة ، ولكنه انحاز إلى مذهب « مونتاتوش » (المنجد) .

و (يجبُ أن تُمنع من الضحك والكلام لأنها أُحْبُولَةُ الشيطان ، وبها يُغرى بالخطيئة والمعصية) .

وفي عام (٥٨٦ م) عُقد في بعض الولايات الفرنسية مؤتمر أعاد النظر في تلْك القواعد والمقررات الاجتماعية أو البيْتية ؛ وانتهى بأن المرأة إنسان ، وليست حيواناً ، إلا أنها خُلِقَتْ للاستخدام في مصالح الرجُل .

ويبدو لنا من خلال هذا الاستقراء الوجيز ، والجولة السريعة في الأفق التاريخي ، أن المرأة كعنصر بشري إنساني ، على أهميّته في تكوين (الخلية الاجتماعية) ، لم تَحظ بالنَّظرة السليمة أو إدراك قيمتها ، ثم آحتوائها في ركيزة البناءِ الأُسريِّ والأمميِّ ؛ بل ظلتْ في متاهات التلذُّذ بها آناً والاستمتاع والتسخير آناً آخر ، أوْ مباءَة لاستفراغ الشهوة وقضاء اللبانة ومَفْرخاً لإنجاب الأولاد ، بنين وبنات ... ؟ دون الإحساس بأُمومتها ، أو محْوريّتها التى تستقْطب التكْوين في الأبناء ، عطفاً ورعايةً وحناناً ، وتوجيهاً وتربيةً وهداية ..!

ولقد كان هذا – ولا شك – سبباً مهماً وجوهريّاً في عدم ديمومة تلك الأمم وحياتها فترة زمنيّة طويلة ، ثم آنهيارها وآنزوائها في جُحور الزّمن والتاريخ .

إن خلل التقدير السليم لكينونة المرأة ، أفقد هذه المجتمعات طوعاً أوْ كرْهاً – قُدرتها على رسوخ أقدامها ، فآهتزتْ وتزلزلتْ ، ثم تهاوتْ ، ولم يبْق لها إلّا الذكْرى .

من هُنا .... ، من تقدير القيمة الإنسانية للمرأة ، وأهمية دورها ووظيفتها في المجتمع – أي مجتمع – تنشأ الضرورة في حُسْن تربيتها وتوجيهها ، لتؤدّى رسالتها على أكمل وجْهٍ وأتمّه .

كما يبدو لنا من خلال الاستقراء أيْضاً أن النظرة الدِّينية المسيحيَّة للمرأة ، الناشئة عن إرهاصاتِ التّوراة (العهْد القديم) ، وآفتراءات المحرِّفين لِلْكلم عن مواضعه فيها ، قد تبلْورت في قالبٍ من الازدراءِ والمهانةِ للمرأة ... .

تلك النظرة التى ظلت تتقَلَّب في أدوارٍ شَتّى ، بيْن شدٍّ وجذب ، وتَشَنُّجٍ وتحلُّل ، طوال ستّةِ قرونٍ ، حتى استقرتْ عند قاعدة : (أن المرأة إنسان ولست حيواناً !!! . لكنها خُلقت للاستخدام في مصالح الرَّجُل) .

وهذه النظرة على الرَّغم من سلبيَّتها وضعفها ، اعتُبرت في حينها نوعاً من الانتصار ، وآسْتواءً على الصراط الإنساني السويِّ ، في إنصاف هذا المخلُوق ، والكائن الحيّ .

لكن عُقدة « حواء » ، الآكلة من الشجرة ... في رمْزيةٍ للخطيئة الأصليّة ، ما تزال هي الأساس في العقيدة اللاهوتيَّة المسيحيّة ، وعلى مدارها كان الفداء والصلْب والغُفْران ... وما « الرهبانية » إلا صُوَر التطهُّر ... ، ابتُدعتْ للتكْفير !!! .

وعليْه ، فإنَّ وجهة النَّظر التربويَّة المسيحيّة ، بالنسبة للمرأة ، – إنْ وُجدَتْ – !! ، لا بُدَّ وأنْ تَحْملْ في طياتها ومضامينها كُلّ

تلك المعاني ، وترتكز أساساً على الخطيئة الأصليَّة والترهيب مِنْها ؛ دون أن يكون لها بُعْد اجتماعي إنسانيّ ، عميق وشامل .

ونحن ، لسنا في صَدَد مناقشةٍ أساسيةٍ وعامة للنظرة المسيحية إلى المرأة ، ولكنّا تطرَّقْنا إليها من حيث الضرورة ، الموضوعية ، لنقارنها وغيرها من النّظرات التاريخية ، وثنيَّةً كانت أو غَيْر ذلك ، بالنظرة الإسلامية من ناحية القيمة والأسلوب ، والتي تعتبر لدى المنصفين من المفكرين والباحثين انقلاباً حضارياً ، اجْتثَّ كُلّ افتئاتٍ على (المرأة) كإنسان ، أو كوظيفةٍ اجتماعيّة هي الأُولى والأهم .. ، ولوْ أن كثيراً من المسلمين - حتى يومنا هذا - لم يُدْركوا بعقولهم وشعورهم الوجدانى أبعاد ذلك الانقلاب !!! ، وما زالوا حتى عصرنا الحاضر مفتونين بالوهم الخادع ، إمّا جهْلاً أوْ إمَّعِيَّةً .

المَرْأةُ في جاهليَّةِ الْعَرَب

كانت المرأةُ في جاهليّة العرب زريَّةً مُهانة ، فِي الأُسرةِ والمجتمع ، طفلةً وشابّة ، لا حقَّ لها ولا كرامة ، لا يُعْتَدُّ بها في رأى ولا وُجُود ، حِلْس[1] الخِدْر والبُيُوت ، استعبدها الرجالُ في ذلّةٍ وآمتهان ؛ إن سألت لا تُجاب ، وإن آحْتيج إليها فلِلسَّقْيِ والاحتطاب والتقاط النوى وتغذية الكلاب ، فإن تسامتْ فلإبْراد غلة الشهوات في آزورارٍ ونظرات شزراء .

يوم خروجها للدُّنيا يوْم تَسود فيه الوجوه وتغتاظ فيه النفوس في حيرةٍ واضطراب ، أتُمسِكُ على هُونٍ أم تُدسُّ في التُّراب .

بُشرى البشير بها سُخْط وإغضاب ، وبُشراها هي الدَّفْن حيَّةً في التُّراب ؛ عقول فارقها رُشْدها لطول عَهْدها بنُور السماء وهدى الأنبياء ... ، رجال صنعتهم الوثنية ، وربَّتهم الكهانة ، فَغَمَّ صفاءُ أصُولها فأصبحت فصاحة ألسنتها وكرم أيديها وشجاعة أبدانها بُروقاً تومض ولا تُضيء ، وتُرْعد ولا تُمْطر .

---

(١) الحلْس : ما يُفرش من بسط وغيرها في أرض البَيْت .

قال الله تعالى :

﴿ وإذا بُشِّر أَحَدُهم بالأُنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوداً وهُو كَظِيم ، يتوارى من القَوْم من سُوءِ ما بُشِّر بِهِ أَيُمْسكُهُ على هُونٍ أم يَدُسُّه في التُراب ألا ساءَ ما يحكُمُون ﴾ سورة النَّحل (٥٨ – ٥٩) .

وقال جل شأنه :

﴿ وإذا المؤءودةُ سُئِلت بأَيِ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ سورة التكوير – (٨ – ٩) .

ويُفسّر « قتادة » هذا فيقول :

(فكان أَحَدُهُم يَغذو كَلْبَه ويَئِدُ ابْنَتَهُ)[١] ؛ ويفَسّره السدّي أيضاً فيقول : (كانت العربُ يقتلون ما وُلد لهُم من جارية فيدسُّونها في التراب وهي حية)[٢].

ويصف أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » – رضى الله عنه – عرب الجاهليّة في أسى واكتئاب فيقول :

(كُنا في الجاهلية لا نعتدُّ بالنساء ، ولا نُدخِلُهُنَّ في شيء من أمورنا ، بل كُنّا ونحن بمكّة لا يُكلِّم أحدنا امرأتَهُ ، إذا كانت له حاجة سَفَعَ برجليْها ... فقضى منها حاجتَهُ ، فلما جاء الله بالإسلام أنزلهُنَّ حيث أنزلهُنَّ ، وجعل لهُنَّ حقاً)[٣].

(١ – ٢) الدّر المنثور (جـ ٤) (ص ١٢١) .

(٣) كنز : العمال (جـ ١) (ق – ٤٦٧٤ – ٤٦٧٩) .

وكان الوأد عِنْدهم لِأَسْباب :

١ – خشية الوقوع في العار ، إذا شذّت أخلاقها ، وارتكبت السوء !! ؟ .

٢ – إذا وقعت في السّبى ، وأَخذها العدُوُّ عنْوةً ، فأصبحت فريسةً بيْن يديْه .

٣ – خشية الفقْر والإملاق .

ويُروى [أن « قيس بن عاصم المنْقريّ » كان يحدِّثُ بيْن يدي النبيِّ « ﷺ » أنَّه وَأَدَ من بناتِهِ اثنتىْ عشرة في الجاهلية ، فقال له (عليه الصلاة والسلام) : « من لا يرْحَم لا يُرْحم » . ثم أمره أن يُعْتِقَ بكُلّ واحدةٍ مِنْهنَّ جارية مؤمنة] .

فمن خلال هذه الملامح التي تُصَوِّر واقع (مكانة) المرأة في جاهليةِ العرب ، نُدْرك إلى أىِّ مدى آنحطّ قَدْرها وآمتهنتْ إنسانيّتُها وأُهدرتْ كرامتها ، وجمحت الجاهليّةُ بالمجتمع العربّى ، فَشَذَّ عن سواء السَّبيل ، وانطلق يخبط في مهامه الحياة ودروبها خبط عشواء ؛ حتى استنقذتْه أيدي العناية الإلهية برسالة الإسلام ونبُوَّةِ « محمد » – عليه الصلاة والسلام – ، يقول الله تعالى :

﴿ واذْكروا نِعمَةَ الله عَلَيْكُم إذ كُنتُم أعداءً فألَّفَ بيْن قلوبكم فَأَصْبَحتُم بنعمته إخوانا وكُنتُم على شفا حُفْرةٍ من النار فأنقذَكم منها كذلك يُبيِّنُ الله لكُم آياتِهِ لعلكُم تهتدون ﴾[1] .

---

(١) آل عمران (١٠٣) .

ولعلَّ فيما قاله أمير المؤمنين « الفاروق » – رضى الله عنه – بشأن النساء وجاهلية العرب ، أصدق ما يشهد لذلك الواقع المرير .

يقول – رضى الله عنه – : (كُنّا فى الجاهلية لا نَعْتَدُّ بالنِّساء ...) ، ففى هذه العبارة – على وجازتها – من الإطلاق والعُموم ما يبين بصورة شاملة إهدار المكانة البشرية والإنسانية للمرأة ، والإهمال التام لمقامها وقيمتها ، وشَلِّ إرادتها ، وتعطيل الفكر والشعور عندها .

ثُمَّ يأخذ – رضى الله عنه – في التفصيل فيقول :

(..... ولا ندخلهن فى شىء من أُمورنا)

وهنا تتضح الصورة الحياتية للحَجْر الذي كانت تَفْرضه الجاهليَّةُ على وظيفة المرأة الاجتماعية في الشئون الأُسريَّة ، فلا مجال للمشاركة في الرأي أو إبداء المشورة ، أو إظهار النُّصْح ، حتّى في الأمور التي تقع مسئوليتها على عاتقها ؛ أو حتى في الأمور التي تتعلّق بها مباشرةً !!! فالرَّجُل ربُّ البيْت وسيده ، رأيهُ النافذ في تسلُّطٍ مُطلق ؛ ...

إن كثيراً من الأوضاع العائلية – تحت سقْف البيْت – خصوصاً ما يدور منها حوْل البنات ، في مختلف شئون حياتهن ، تفْترض أن يكون للزوْجة رأي ، لأنها من حيث الموقع والتجربة أدرى من الزوْج ... وأعلم ؛ غير أنها يُكمَّمُ فوها ويُعطَّل رأيها ولا يُسمح لها بقوْل .

أضِفْ إلى ذلك شخصيّتها وما يتعلق بها ؛ إذ حرَمها العُرف الجاهلي وتقليدُهُ الضال أَنْ تَرِثَ – مثلا – ؛ وتأخذ نصيبها مما ترك الوالدان والأقربون ؛ أو أن تتصرّف بحُريَّةٍ فيما ملكتْ أو تَمْلك ؛ .

وأيْضاً .... فإن الأمر قد تجاوز هذا الحدّ من إعدام شخصيتها إلى درجة آعتبارها (شيئاً) من المخلفات والمتروكات ، فتُوَرَّثُ كالمتاع !!؟ .

كما أنَّه كانَ للزَّوج – المستبدّ – أنْ يُطلّقها ويستعيدها عشرات المرات ، في استمتاعٍ جِنْسي مطلق ، دون أدني آعتبارٍ لبشريتها وإنسانيّتها أو المشاركة في المسيرة الحياتية .. .

ونتساءَل : أيْن المودَّة والرحْمة ؟؟ وأَيْن كيْنونة كُلٍّ منهما لباسا للآخر ، والانصهار التام في بوتقةِ الوحدةِ النفسيّة والبدنية ، وذوْبِ الحُبّ !!؟ .

أين كلّ ذلك من قوْل « عُمر » – رضى الله عنه :

(...إذا كانت لهُ – أى لأحد الجاهليِّين – حاجة سَفَعَ برِجْليْها ... ، فقضى منها حاجتَهُ) .

إنها مباءَةُ آستفْراغٍ ، في حيوانية بهيميّة مَحْضة !! .

يقول « غوستاف لوبون » في كتابه « حضارة العرب » – (ص ٦ ٠ ٤) :

(كانَ الأغارقة (الإغريق) ، على العموم ، يعدّون النساء من المخلوقات المنحطة التي لا تنفع لغير دوام النّسْل وتدبير المنزل ، فإذا وضعت المرأةُ ولداً دميماً قَضوْا عليها ، ومن ذلك قول « مِسْيُو ترُو بلُنْغ » : « كانت المرأة السيئة الحظّ التي لا تضع في (إسبرطة) ولدًا قويّاً صالحاً للجُنديّةِ تُقتَل » وقال : « كانت المرأة الولود تُؤْخذ من زوْجها بطريق العارية لِتَلِدَ للوطن أولاداً من رجُل آخر » ؛ ولم يَنَلْ حُظْوةً من نساء الإغريق في دوْر ازدهار الحضارة اليونانية سوى بنات الهوى اللاتي كُنَّ وحْدَهن على شيء من التبرج) .

وكان جميع قدماء المشترعين يُبدون مثل تلك القسوة على المرأة ، ومن ذلك قوْل شرائع « الهندوس » : (ليس المصير المقدّر والريح والموت والجحيم والسُّم والأفاعي أسْوأ من المرأة) .

ولم تكُن التوراة أرحم بالمرأة من شرائع الهنْد ، ومن ذلك قوْل سِفْر الجامعة : (إن المرأة أمَرُّ من الموت) وإن (الصالح أمام الله ينجو منها ... ، رجُلاً واحداً بيْن ألْفٍ وَجَدْتُ ، أما امرأةً فبيْن كُلّ أولئك لم أجد) .

وليست أمثالُ مختلف الأُمَم أكثر اعتدالاً ، فالمثل الصيني يقول : (أنْصِتْ لزوْجَتِكَ ولا تُصَدِّقْها) والمثل الروسي يقول : (لا تجِدُ في كُلِّ عشْر نِسْوة غير روح واحدة) . والمثل الإيطالي يقول : (المهْماز للفرس الجواد ، والفرس الجموح ، والعصا للمرأة الصالحة والمرأة الطالحة) والمثل الإسباني يقول : احْذر المرأة الفاسدة ولا تركنْ إلى المرأة الفاضلة) .

وتَعدُّ جميع الشرائع الهندوسية واليونانية والرومانية والحديثة المرأَةَ من فصيلة الإماء أو الصبيان ، ومن ذلك قوْل شريعة « مَنُو » :

تخضع المرأة في طفولتها لأبيها ، وفي شبابها لزوْجها ، وفي تأيُّمها لأبنائها إذا كان لها أبناء ، وإلّا فإنها تخضع لأقرباء بعلها ، أى لا يجوز ترك أمرها لها) .

ويقرب من هذا ما ورد في شرائع اليونان والرومان ، فقد كان سُلْطان الرجُل في (رومة) على زوجته مطلقاً ، وكانت تُعَدُّ أَمَةً لا قيمة لها في المجتمع ، ولم يكن لها قاضٍ سوى زوجها الذى بيده حقّ حياتها وحقّ موْتها ، ولم تعامل الشريعة اليونانية المرأة بأحْسن من هذا ، وهي لم تعترف بأي حقّ ، ولا بحق الميراث) .

الوظيفة الاجتماعية

ماذا نعني بالوظيفة الاجتماعية ؟

قد تتباين الآراء والأقوال حول هذا الموضوع بسبب المنطلقات والمرتكزات الفكرية والثقافية والدراسات العلمية ، والاستنتاجات التي حصَّلها الإنسان عبر القرون والأجيال ، سواء من ناحية الاستقراء والتجربة ، أو من ناحية الدراسة النظرية .

ومن هنا كان جُموح النظرة الموضوعية عن الصراط السوي ، وابتعادها عن الحقيقة الأساسية ، وآختلال الميزان ، وفقدان المرأة لوظيفتها الاجتماعية الأساسية التي خُلِقَتْ لها ، وهيَّأتها لها القُدْرة الإلهيّة ، ويدُ العناية الربانية .

نعني بالوظيفة الاجتماعية : المسئولية الحياتية في تكوين الخليَّة الأولى .

وهذا هو مدخلنا إلى تقْييم فضيلة التربية للبنات ، لأنهنَّ الروّاد ، وعليهنَّ مدار السلامة والنجاح ، أو الضلال والفشل ، من إطار البيْت والأسْرة ، إلى ساحة وميدان المجتمع والإنسانية !! .

ومن عجبٍ أن يُسمّى الضلال الفكريّ وزيْغ النظر في إزاحة المرأة عن وظيفتها ، وإقالتها في منصبها الحياتي ، والتحريش بينها وبين الحق الأساسي ، وإغرائها بشراك الحقوق الوهمية ... ، من عجبٍ أن يسمى ذلك تَقدماً وتحرُّراً !!! .

إنّه فعلاً انفلات من ضوابط المسئولية ، وتحلل من واجباتها .... ينعكس بالضرورة المنطقية على كيان الخليَّة شللاً وفشلاً ؛ وإن من المكابرة والمعاندة للحق أن نقول غير ذلك مع ما نشاهده من واقعٍ هُو أصْدَق دليل .

والتقدميَّةُ !!! ليستْ شعاراً أجوف نسترخص به عقول الناس ووجداناتهم ، ونَسْتقْطب تَجمعاتهم في مسيرة غوغائية .، تحطم وتدمّر بلا وعْي ولا بصيرة ، ولكنها – بالفعل وبالحقيقة – تأكيدٌ جازم حازم من خلال النظام والقانون على إنسانية الإنسان وسعادته ، فرداً ومجتمعاً ، على مدى الأيام والأعوام و ...القرون .

يقول الأستاذ « محمد قطب » في كتابه : (التطور والثبات) – (ص ٥٨) :

[وتركّزت الفتنة (فتنة داروين وفرويْد ودُرْكايم) كلها في « تحرير المرأة » .

حقا لقد كان هذا العصر (عصر جاهلية القرن العشرين) هو عصر تحرير المرأة !

فقد كانت القوى الشريرة كلها التى تعمل في الأُرض تعلم أنه لا وسيلة لإفساد الأُمم كلها خيْر من « تحرير » المرأة ، أي إخراجها إلى الطريق فتنة للرجل لكي تفسد أخلاقه وتنْهار .

ينبغي بأي ثمن أن تخرج المرأة إلى الطريق ...

تخرج بحجة الاستقلال الاقتصادي ..

تخرج بحجة ممارسة حقها في الحياة ..

تخرج بحجة التعليم أو بحجة العمل ..

تخرج (للاستمتاع) !!

المهم أن (تخرج) ... ، ولكن أهم من ذلك أن تخرج في صورة إغراء ... إنها إن خرجت تتعلّم ، أو تعمل ، أو تمارس حقها في الحياة ، وهي محتشمة متحفظة ، محافظة على أخلاقها وعلى طبيعتها (المنزليّة) بمعنى الرغبة في (الاستقرار) في أسرةٍ حين تسنح الظروف ... ، فلا فائدة إذن من كل (التعب) الذي تعبْناه في إفساد البشرية .

ينبغي أن (تخرج) في صورةٍ (تفْتن) الرجل وتُغْريه .. ، وإلا فما الفائدة ؟

ولكن كيف السبيل ؟

السبيل هو الدعوة ! .

يكتب الكتاب ... ويكتب الصحفيون .. ويكتب القصاصون . .

السبيل هو (السينما) ! .

تمثّل الأفلام الداعرة العارية ، الداعية إلى الفساد .. .

السبيل هو الإذاعة والتلفزيون (على التوالي) .

السبيل هو بيوت الأزياء .. .

السبيل هو صناعة أدوات الزينة ..

السبيل - بل كل سبيل - هو إيجاد صورة من (الحياة الاجتماعية) لا تستغني عن المرأة الفاتنة المغرية - بهجة المجتمع - وإيجاد تصوُّر للحياة لا يستغني عن المرأة الفاتنة المغرية (لتشارك) الرجل في حمْل الأعباء ، وإيجاد (واقع عملي) لا يستغني عن المرأة الفاتنة المغرية كجزء واقعي من الحياة .

ووُجد كل ذلك بالفعل !! .

واستراحت القوى التي تعمل لإفساد البشرية ... وطلبت المزيد .

وجاء المزيد - قصْداً أم عرضاً ؟ - بالحربيْن العالميتين .

قُتل في الحرب الأولى عشرة ملايين من الشباب ، وفي الثانية نحو أربعين ، ووُجدت بِعَدَدِهم (أُسَر) بلا عائل ، ونساء بلا رجال .. !! .

و(خرجت) المرأة - راضية أم مكرهة - تعمل ... ، وتبحث عن الجنس ... ، وحدث مزيد من (التحرُّر) ... من انحلال الأخلاق .

وصار (الروتين) العادي في الحياة الغربية أن تعمل كل فتاةٍ ، وأن يكُون لها صديق ، أي عشيق ، (Boy Friend) تمارس معه نشاط الجنس ، كاملاً في أغلب الأحيان ، (روتين) عاديٌّ لا يستنكر ... ، لا يفكر أحد في استنكاره على الإطلاق إلا ... المجانين ، الذين يظنون أنه يوجد دين !! أو أخلاق !! أو تقاليد !! .

المجانين الجهلاء الرجعيون المتزمتون المتحجرون المتعفنون ... ، الذين يعيشون بعقلية القرون الوسطى (أوْ ما سلف) ؛ الذين يحجبون عن أعينهم النور ، الذين يريدون (إرجاع) الساعة إلى الوراء ...] إ . هـ .

إن هذا (الخروج) – طوْعاً أو كرْها – تحت ضغط العوامل والظروف ، أو بسبب التجاذب النفسيّ والحسيّ هو الذي أدى في الماضي ، ويؤدي في الحاضر ، إلى (الانفلات) من مسؤولية الوظيفة الاجتماعية الأساسية للمرأة ، وفقدان (الخليةِ) عُنْصر بقائها واستمرارها ، وتضعضع المجتمع ، وضياع الإنسانية ، بالتدرج والتتابُع ... .

إن (التيه) الذي عاني مِنْه (بنو إسرائيل) طوال أربعين عاماً في (سيناء) ، بسبب من تنكرهم للإرادة الخالقة وناموسها الضابط .. ، هذا (التيه) ينعكس في ذواتهم وأعماق نفوسهم وأجيالهم ، تاريخيّاً ، (حقْداً) مدمِّراً على الإنسانية كلها ، والبشرية قاطبةً ، فلا بُدَّ من الانتقام من الله تعالى في خلْقِهِ وعبادِهِ ، بتيهٍ أكبر وأخطر !!! .

ولقد سرْبلُوا دعاويهم بجلباب (العلْم) لتكون مستساغةً مقبولة ، بل مطلوبة يُسْعى إليها ويُقْصد !! .

وزيّنوها بدعْوى (التَّحرُّر) ... ، لأَن الحرية في معناها الإنساني أسْمى ما يحرص عليه الفرْد ، وكذلك المجتمع .

ولكن أيَّة حُرِّيةٍ ؟ ، وأيُّ تحرُّر ؟ .

الحريّةُ (المطلقـة) ، بِكُـلّ أبعادهـا اللامسؤولـة .... والفوْضويّة .... ، والتي تؤدي – حتماً – إلى التدمير للذات والجماعة .

ونعود إلى الوظيفة الاجتماعية ...

لأننا نحرص على الأصالة الإنسانيّة ومقامها في (كيان) المرأة ، ودوْرها في الحياة .

يقول الله تعالى :

﴿ يا أيُّها الناسُ اتّقُوا ربَّكُم الذي خلَقكُم من نفْسٍ واحدةٍ وخلق منها زوْجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ﴾ النساء (١) .

ويقول سبحانه :

﴿ ومِنْ آياتِهِ أنْ خلَق لكم من أنفُسِكُم أزْواجاً لِتَسْكُنُوا إليْها وجعل بَيْنكم مودَّةً ورَحْمَةً إنَ في ذلك لآياتٍ لقوْمٍ يتفكَّرون ﴾ الروم (٢١)

في موضوع الآية الأولى يقول الأستاذ « محمد قطب » في كتابه (التطور والثبات) (ص ١٧٨) :

[إنه لَلَوْنٌ من الإعجاز أن تجتمع القضيَّةُ هكذا ، أو القضايا الأربع ، بهذا التتابع السَّهْل البسيط ، في آيةٍ واحدةٍ معدودة الكلمات .

آية واحدة تقص في إيجاز مُعْجز كُلَّ تاريخ البشرية

وتجيء آيات أُخرى كثيرة في القرآن فتفصّل هذه القصة تفصيلاً وتزيدها بياناً ....

١ – قضّية الربوبية ، ٢ – قضية وحدة الإنسانية ٣ – قضية وحدة الجنسين . ٤ – قضية المجتمع البشرى ،

أربع قضايا متوالية تحدد الإطار الذى تعيش في داخله البشرية

﴿ اتّقوا ربَّكم الذي خلقكم ... ﴾ قضيَّةُ الربوبية والخلْق ؛ الله هو الخالق ؛ قضيّةٌ أزليّة ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ؛ ومن ثَمَّ يترتب عليها تقوى الله ، فتنشأ القضيّة الأُولى في حياة الإنسان : قضيَّة العقيدة .

﴿ من نَفْسٍ واحدة .. ﴾ قضيّة الإنسانية الناشئة من نفس واحدة ، من أصْلٍ واحدٍ مُشْترك ، من كيانٍ واحدٍ يضمّها جميعاً ، قضيّة ثابتة لا تغيّرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ، ومن ثَم يترتب عليها أُخُوَّة البشرية .

﴿ وخلَق منها زَوْجَها ... ﴾ قضيَّةُ الجنسين : الرجل والمرأة ، أحدهما من الآخر ، فالمرأة من ذات النفس التي هي الرجل ، قضية ثابتة لا تغيّرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ، ومن ثَم يترتب عليها (المساواة) الإنسانية بيْن الجنسيْن ، وكذلك وجود علاقة ثابتة بين الجنسيْن .

﴿ وبثّ منهما رجالاً كثيراً ... ﴾ قضيّة المجتمع المتكوّن من الأفراد ، الناشئين من نفس واحدة ، والذين هم إخوة في الانسانية ،

قضيّةٌ ثابتة لا تغيّرها كل تطورات التاريخ ، ولا تُفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ، ومن ثم يترتَّب عليها أن تكون تنظيمات المجتمع قائمة على هذه الحقائق : الأُخوّة ، ووحدة النشأة ، ووحدة النَّفْس البشرية] إ هـ .

ونحْن إذ تَهمُّنا – من الناحية الإيمانية العقيدية ، والتشريع السلوكي – كُلّ تلك القضايا جُمْلةً ، يهمُّنا منها على التَّفْصيل القضيّة التي تتعلّق بالجنسين : المرأة والرَّجُل ، وكونهما من نَفْسٍ واحدة ، ثم ما يترتّب على التنوُّع الجنْسِي من وظيفةٍ اجتماعية حياتية تتعلَّق بكُلٍّ منْهُما ... .

إن الزوجيْن – الرجل والمرأة – من (نفْسٍ) واحدة ، والإشارة إلى النفس ذات دلالةٍ لا تخفى ، إن المشاركة ليست في النوْع الإنساني فقط ، ولكنها أخص من ذلك كثيراً ، إنها المشاركة في (النفس) ؛ النفس الواحدة .. ، ومن ثَمَّ يتشاركان في الكيان الإنساني الداخليٍّ الذي تشير إليه لفظة (النفس) ، كما يتشاركان في الإطار الخارجيّ للإنسان .

يقول تعالى : ﴿ **فَاسْتجاب لهُمْ ربُّهم أنّي لا أُضيعُ عَمَل عاملٍ مِنْكُم من ذكرٍ أوْ أنْثى بعضُكم من بعض** ﴾[1] متداخليْن ممتزجيْن لا يتميزان من حيث الكيان الإنساني للإنسان .

---

(١) آل عمران (١٩٥) .

ولكن كُلاً منهما جِنْس يختلف في التركيب (الفسيولوجي) ، مما (ينوِّع) الوظيفة الحياتية . يقول (الكسيس كاريل) في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) (ص ١١٤) :

[إن (الاختلافات) الموجودة بيْن الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص لِلأعضاء التناسلية من وجود الرَّحم ، والحمل أو من طريقة التعليم .. ، إذ إنها ذات طبيعة أكثر أهمّيّة من ذلك ... ، إنها تنشأ من تكوّن الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماويّة ، محدّدة يفرزها المبيض .. ، ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهريّة بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان (تعليماً واحداً) ... ، وأن يُمْنحا سلطاتٍ واحدة ، ومسئولياتٍ متشابهة .. .

والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل ، فكُلُّ خليّةٍ من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها ، وفوق كل شيء بالنسبة (لجهازها العصبي) ، فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة لِلِّين ، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبي فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها ، ومن ثَمَّ فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي .

فعلى النساء أن ينمين أهليتهُنَّ تبعاً لطبيعتهنَّ دون أن يحاولْن تقليد الذكور ، فإن (دَوْرهُنَّ) في تقدُّم الحضارة (أسْمى) من ..ر الرجال ، فيجب عليْهن ألّا يتخلَّين عن (وظائِفِهنَّ) المحددة] .

ويقول في الصفحة (١١٦ - ١١٧) :

[وعلى أي حال يبدو أن النساء - من بيْن الثدييّات - هُنَّ فقط اللائي يصلْن إلى نمُوِّهِنَّ الكامل بعد حمْلٍ أو اثنيْن ، كما أن النساء اللائي - لم يلدْن لسْنَ (متزنات) كاملاً كالوالدات . فضلاً عن أنَّهُنَّ يُصبِحْنَ أكثر عَصَبِيَّةً مِنهُنَّ ... ، صفوة القوْل أن وجود الجنين الذي تختلف أنسجته اختلافاً كبيراً عن أنسجة الأم ، بسبب صِغرها ، ولأنها جزئياً من أنسجة زوجها ، يحدث أثراً كبيراً في المرأة .

إن أهميَّته وظيفة الحمل والوضْع بالنسبة للأم لم تُفهم حتى الآن بدرجةٍ كافية ، مع أن هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نموِّ المرأة ، ومن ثَم فمن سخف الرأيِ أن نَجْعل المرأة تتنكَّر للأمومة !!!؟ (وظيفتها الحياتية الاجتماعية .. الأساسية ..) .

ولذا يجب ألّا تُلقَّن الفتاة التدريب العقلي والمادي ولا أن تُبَثَّ في نفسها المطامع التي يتلقّاها الفتيان وتبث فيهم ؛

يجب أن يبذل المربّون اهتماماً شديداً للخصائص العضويّة والعقلية في الذّكر والأنثى ، كذا لوظائفهما الطبيعية ، فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسيْن ، ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات في إنشاء عالم متمدين] .

وفي الصفحة (٣٦٨) من نَفْس الكتاب نزداد تلاقياً مع المؤلف العالم ، والبحاثة الدارس ، (الكسيس كاريل) ، بحيْث يُوَفّر علينا

كثيراً من مشاق التطويل والإعادة ، وعلى القارىء الدّوْر والمحاورة ، فيقول :

[أليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشتمل بصفةٍ عامة على أيّة دراسةٍ مستفيضةٍ للصغار والأطفال ، وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية ؟!! .

يجب أن تُعاد للمرأة (وظيفتها الطبيعية) التي لا تشتمل على الحمل فقط ، بل أيّضاً على رعاية صغارها] .

ويهمُّنا من الآية الثانية : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا .... الآية** ﴾ – مع اهتمامنا بها الأصليِّ والعام – القواعد في الصلات الإنسانية التي تنتظم علاقة الذكر بالأنثى ، وبالعكس ، في إطار الزوجية ، والتي تَطّردُ في ثمرات هذه العلاقة ... ، في الأجيال ... .

فحين (ينتظم) اللقاء ، في رباط الزواج المقدس وفْق الثوابت السابقة ، تنشأ الأُسْرة الصالحة ، وتنمو الخليَّة السليمة .

ف (السَّكنُ) و (المودةُ) و(الرحمةُ) هي عوامل تعمّق الجذور وانتشار الأغصان ، ونشوء الزهر ونضوج الثَّمر .

الفصل الثاني

لماذا التربية ؟

تساؤل فيه بداهة الإيجاب والجواب معاً ..

ذلك أنَّ العرض المسْهب الذي أجريناه من خلال موضوعات الفصل الأول يؤكد بصورةٍ جازمة وأساسية أن الأُنثى فتاة كانتْ في دور النشوء ، أو زوجةً في المرحليّة الأولى للخليَّة الاجتماعية ، أو أمّاً تشكل المحْور الأساسي في تكامُل الأسرة وبنائها .. ، هذه الأنثى ذات دَوْرٍ خطير ، وعظيم الشأن ، له آثارُه الصميميّة في مسيرة الإنسانية ، مُنْذُ « آدم » و« حوّاء » إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عَلَيْها .

وما من شَكٍّ في أن تلازماً مصيريّاً يربط بيْن أهمِّيَّة الدَّوْر وأُهمِّية المنهج التَّربويِّ ، كيْ يتأتّى للأُنثى أن تنهض بأعباء الوظيفة الاجتماعية ، وهل من دَوْرٍ في الحياة البشرية يعْدل دَوْر بناءِ الْفَرْد ؟ الدَّوْر الذى تضطلع بأَعْبائه الأُنثى – (الفتاة ، والزوجة ، الأُمّ) – دون الذَّكَر .

ونعودُ إلى ما أَسْلَفْنا من قولٍ لـ (ألكسيس كاريل) ، وهو يتساءل متعجّباً :

[أَلَيْس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشمل بصفةٍ عامّةٍ على أيَّةِ دراسةٍ مستفيضة للصّغار والأْطفال ، وصفاتهم (الفسيولوجية) والعقليّة) ؟ .

ويجب أن تُعاد للمرأة وظيفتها الطبيعيّة التي لا تشتمل على الحمْل فقط ، بل أَيْضاً على رعاية صغارها] .

نعودُ ... لِنُقِرَّ مع العالم المفكّر بالضرورة الحتمية التى يفترضها أساساً في مناهج تعليم البنات ، وتهيئتهِنَّ لوظيفتهِنَّ الطبيعيّة ، إنْ عاجلاً أو آجلاً .

ومن هُنا كان غرضنا في التساؤل : لماذا التربية ؟ .

ولنتوسَّع في المفهوم كي يشمل أهميّة الدَّوْر .

إنَّ التربية بمفهومها الخُلقيِّ والتوجيهيِّ ، والتكوين النفسيِّ والوجدانيّ ، مطلوبة لكلا الجنسيْن ، ولكنها تتطلَّبُ توسُّعاً أكبر وجُهْداً أعظم بالنسبة للأُنثى ، بحيْثُ تتأقْلم فيها النظريات والأُسُس ، وتُصبح مع مرور الزَّمن (مدرسةً) قائِمة بذاتها ، متميّزةً بمنهجها ، وموئلاً للبناء شامخاً .

وبالإضافة إلى ما لحظه (الكسيس كاريل) من نقْص في مناهج تعليم البنات ، لإعدادهن لوظيفتهنّ الطبيعية ، نرى أنَّ التمايُز الجنسيّ والنوْعيّ بيْن الأنثى والذَّكر لا يحظى بالاهتمام المطلوب في عُمق

الدَّرْس والتوجيه ، ونعجبُ لهذا النقص أَيْضاً ، عِلْماً بأنّه في مرحلة البلوغ يُشكِّل مفرقاً خَطِيراً ... ، يفترض في منهج التربية والتعليم حيِّزاً يشمل هذه الكيْنونة ويُغطِّي مساحتها الشاسعة ، على مدى تقلُّب الأنْثى ... ، من العُذْرية إلى الزواج إلى الأُمومة .

وإن كثيراً من الفتيات ، أوْ جُلَّهُنّ يجْهلْن أكثرالحقائق عن أُنوثَتهنَّ التى هي في صُلْب التَّربية ؛ وفي إدراك تلك الحقائق يُساهِمْنَ في سَدِّ الخَلَلِ التربويِّ الواقع ، على الصعيد الفردي والاجتماعي .

وأحاول أن أركِّز على التربية الجنسيّة ؛ لأنّها أشد خطورة في حياة الأُنثى ؛ تربية علمية منهجيّة وتربية منزلية توجيهيّة .

تقول الدكتورة : (ماريون هيلارد) — رئيسة قسم النساء والولادة بجامعة تُورنتو — :

[جاءت إلى مكتبى إحدى المدرسات ، وهي فتاة هادئة رزينة ، لم تتزوَّج بَعْد ، وكانت تشكو من الصُّداع والأرق .

وتحدثت فدارتْ حوْل المَوْضوع ، ولم تُفْصح ، ثم أخذت تشير إلى رجُلٍ كانت (تصادقُهُ) أخيراً !!؟ .

ولقد تنبَّهْتُ فجأة إلى أنها كفّت عن مواصلة الحديث ، وتضايقت لأن خواطري سرحتْ بي بعيداً ، فمضتْ بضْع دقائق ، لم أَسْمع خلالها كلمة واحدة ، ولكني أردْتُ أن أستدرجها فقُلت : (حسنا .. ؛ وبعد ذلك طلب مِنْك أن تصحبيه إلى مسكنه ، فماذا كان جوابك ؟) عندئذ تملكتْها الدهشة ، وفغرت فاها قائلةً : كيف عرفتِ ذلك ؟ لقد كنتُ على وشك أن أقول لك هذا !! .

ولكننى عرفت .. .

لأني كثيراً ما سمعتُ أمثال هذه القصّة في صُوَر مختلفة خلال العشرين عاماً التى زاولتُ فيها مهنة الطب ؛ وكانت هذه الصُّور تنتهي إلى نتيجةٍ واحدة . فمهما تختلف روايات القصة ، وسواء كُنّ فتياتٍ لم يَبْلُغْن سنّ الرُّشد ، أو من اللاتى فاتهُنّ قطار الزواج ، وسواء كُنَّ جميلاتٍ أو عاديَات ، فإن هذه الدعوة المحتومة تواجههن جميعاً في وقت أو في آخر .

وهي بالنسبة لهُنّ أمر غريب ، بل تطوّر يبعث على الدهشة ، وكل فتاةٍ تقول لنفسها : (لست من ذلك النوع من الفتيات) !

وهذا هراء ..

اللهُم إلا بالنسبة لقلّة قليلة من النساء وصلت حيويّةُ الوظائف من أجسامهن إلى درجة بالغة الانخفاض ؛ فالواقع أن (كُلّ) فتاة من ذلك (النَّوْع) من الفتيات ، و (كُلّ) امرأةٍ من أولئك النساء قد ارتكبت الخطأ الشائع ... وهو : التهوين من مقدرتها الحيويّة وعدم إعطائها حقّها .

فإن الخالق – سبحانه وتعالى – قد زوّدها بنوع خاصٍ من الغُدَد والرغبات ، والرائحة الفوّاحة التى تجعلها مشتهاة من الرجال .. ، ومع ذلكَ فإن نوبةً من العُجب البرىء تعتريها عندما تؤدى تلك القوى الحيويَّة وظيفتها .

ويخيّل لبعض النساء أن أنوثتهنَّ معناها أن تكون الواحدة منهنّ مجموعة من الْخدع ، مثل الصراخ لدى رؤية الفيران ... أو الضعْف في علْم الحساب .

ولكن كل طبيب يستطيع أن يخبرك أن الأنوثة متوحِّشة !!! .

فالأنثى مزوَّدة بجهاز تناسُليّ يسيطر على كيانها ، وهو جهاز ذو قُوَّة مدمّرة تستطيع أن تحطِّم القيود والأغلال دون أي نذير ، وذلك عندما يشترك رجل وامرأة في ضحكةٍ خفيّةٍ أو تتلامس يداهُما .

وهذا الجهاز الحيويّ يمكن أن يبلغ أوْج انفعاله إذا ما أثاره فجأة أنين خافت أو ليلة صيْفٍ رُصِّعتْ بالنجوم ، أو حتى الضباب المتكاثف حوْل مصباح الشارع ، عندئذٍ تحسّ المرأة بالرغم منها بشيءٍ يعصف بكيانها الداخليّ ، فيملؤها بتباريح الألم والشوّق .

كذلك فإن (غزيرة الجنس) في المرأة قادرة على أن تُضْفي عليها البهاء والجمال ، فالغريزة الجنسية في المرأة هي (القوة الداخليّة) التي تجعلها تفيض (عَطْفاً) و (حناناً) على الأطفال ، والتى تمكّن المرأة من أن تقبض على عصا (الجولف) وتضرب بها الكرة ضربةً قوية محكمة تنتزع من الكرة غطاءها .

وهذه الغريزة الجنسية جزء من عاطفة الشفقة التي تحس بها الأُنثى عندما تشاهد حيواناً يقاسي العذاب والألم .

وهذه الغريزة عينُها هي أيْضاً بعض عناصر الشعور بالعطف والمودَّة الذي يفيض به قلْب المرأة إزاء شخص يُعاني الوحدة والوحشة .

وعندما كُنْتُ طبيبة ناشئة كان عليَّ أن أهتمّ بأولئك الفتيات غير المتزوجات واللواتي يوشكن أن يصبحن أمهات ، فكنت أسأل بعض أولئك الفتيات مِمَّنْ تميزن بالذكاء والحسّ المرْهَف : (كيف أمكن أن يحدث لك ذلك ؟) فكانت الفتاة تجيبُني قائلة : (لم أستطع أن أضبط نَفْسي)!! .

ولكني في ذلك الوقت كنت لا أستطيع أن أُصدق ذلك ، فقد كنت أقول لنفْسي ، بل أعتقد كما تعتقد سائر النساء ، أن في وُسْع المرأة أن تضبط نفسها وعواطفها مع الرجُل ، فإذا أصبحت العاطفة التي تربط بيْن الرجل والمرأة قويّة واكتسحت حدودها المرْسومة ، فليس ذلك إلا لأن المرأة رغبت في ذلك ، بل ورحّبَتْ به .

أما الآن ... فأنا أعقل وأرشد ، وأعرف أن هذا غير صحيح ، فهناك في العلاقة بيْن الرجل والمرأة لحظة لا يُمكن أن يتحكم الإنسانُ أثناءَها في عواطفه أو يُسيْطر عليها ، ومن ثم يضيع (شرف) المرأة إلى الأبد .

وخط دفاع المرأة الأوّل ضد تلك الخديعة العاطفية هو أن تدرك المرأة أن فَوَران العاطفة ليس أمراً ممكناً فحسب ، بل هو أيضاً أمرٌ طبيعي وعادي .

وخيْر وسيلةٍ تدافع بها المرأة بنفسها عن نفسها هي ألّا تثق أبداً بمقدرتها على أن تقول : (لا) في اللحظة الحاسمة ؛ فإن الاعتقاد بأن في وُسْع المرأة أن توقف المخادنة عندما يصل الغزل إلى اللحظة التي

تحتشد فيها عاطفة المرأة احتشاداً كاملاً ، هذا الاعتقاد ليس إلّا كميناً تتردّى فيه المرأة وهو كمين من صُنْع الشعراء والخياليين .

ولهذا السبب عينه ينبغي للنساء أن يقين أنفسهن بالتمسك دائماً بمستوى من الأخلاق والسلوك قد يبدو نادراً غير مألوف . فإن الحريّة التى تتمتّع بها الفتاة العصرية ليست سوى وهْم ، فهذه الحرية المزعومة لا تتيح للفتاة العصرية أيّة فرصة لاختيارٍ حُرّ .

على أني لا أستطيع أن أتجاهل الواقع فأقول : – مثلاً – ، إن الفتيات دون سِنّ العشرين – يجب أن يَمْتنعْنَ عن القُبَل !!؟ ولكن قليلاً جدّاً من الأمهات مَنْ يوضحن لبناتِهنّ أن الطبيعة قصدت أن تكون القُبل بمثابة (فاتح للشّهية) دون أن تكون وجبة كاملة ، فعاطفة الحبّ الإنسانيّ ليست لعبة يلهو بها شخصان عندما ينوء أحدهما أو كلاهُما بأعباء الحياة . وإنّه ليُفْزعُني أن تحرص الروايات السينمائية ... والأغاني .... وبرامج الإذاعة ... والتلفزيون ... أن تصوّر كلها من الحُبّ الجانب العاطفيّ الخياليّ وحده ، وهكذا يخيّل للبالغين أن ذلك الخيال هُو الحبّ كُلّه – وهذا وهْم خاطىء – فالحب الحقيقي هو العطف والمودّة والحنان ، فهذا الإطار من الحنان هو العنصر الباقي على الزمن في أيّة رابطة بيْن رجُل وامرأة ، بل هو الذي يبقى مدى الحياة .

وكذلك إذا فشلت الزوجات في إدراك قيمة حيويتهنّ وتكوينهنّ العُضويّ ، فإنهنّ يجلبْن الشقاء والتعاسة على أنفسهنّ . والزوجات اللائي تملؤهنُ الثقة بأن شيئاً لن يحدث لهُنّ ، لأنهنّ مع خبرة

الأصدقاء أو الجيران ، ويعمدن أحياناً إلى إشباع غرورهنّ ببعض القُبل السَّهْلة والأحضان ، أولئك الزوجات لا يدرين أنهنّ إذ يَفعلْن ذلك إنما يُطلقْن العقال لقوّةٍ جامحة ليس من الميسور كبْحها ؛ وأنا أعرف ذلك يقيناً ... ، فلقد أشرْفت على ولادة الأطفال الذين جاءوا ثمرةَ مثل هذه العلاقات ، واستمعْت أيضاً إلى تفاصيل حوادث الطلاق التي أعقبت ذلك ؛ وأولئك الزوجات يَنْتحبْن قائلات : (لم نستطِعْ أن نَضْبط أنفسنا) وأنا أُصدِّقُهنّ ؛ ومع ذلك فقد كان في مقدورهن أنْ يتفاديْن الكارثة ، لوْ لم يوافقْن على ترْك الزوْج ومصاحبة الصديق أثناء العوْدة إلى البيْت أو الذهاب إلى النادى .

منذ بضْع سنوات جاءت صديقة إلى مستشفى الولادة بالجامعة لتضع طفلها الثاني ، وأخبرتني أن خيْر صديقاتها قد حصلت على إجازةٍ مُدّتها أُسبوعانْ للعناية بطفلها الأوّل في المنزل وإعداد الطعام لزوْجها .. ، وقلتُ في نفسي بعد أن استمعت إلى هذه القصّة : إن ذلك لأمر عظيم !! ولكن صديقتي ، كسيرة القلْب هذه ، لم تلبث أن شرعتْ في إجراءات الطلاق بعد بضعة أشهر من عمليّة الولادة ، وذكرت اسم صديقتها التى كانت تعني بزوجها ..؟! وكانت صديقتي لا تَفتأ تسأل نفسها وهي محطّمة الفؤاد : (كيف تجرؤ على ذلك ... ؟) إذْ لم تستطع أن تُصدّق أنّ خَيْر صديقاتها يمكن أن تغْتصب زوْجها منها . .

ولكن صديقتي هذه هي التي جلبتْ تلك الكارثة على نفسها ، لأنها (استوْدعتْ زوْجها لدى صديقتها) فوضعت الاثنيْن في موقف

تسوده العلاقة الحميمة ؛ فإني كطبيبة لا أعْتقد بإمكان وجود شيء من العلاقة الأفلاطونية بين رجُل وامرأة (يختليان) معاً كثيراً من الوقت .

ولقد أمضيْتُ أغلب أوقات عملي بيْن نساءٍ لم يتزوَّجْن ، ومِمّن يُؤَدّين حِرْفةً من الْحِرَف ، وكثيراً ما كانت أولئك النساء يسألْنني : (ماذا نَفْعل بغرائزنا الجنسيّة ؟) .

وهذا سؤال مُضحك ، شبيه بما إذا سأَل إنسان ماذا يفعل برئتيْه ... ، إن الغريزة الجنسية في المرأة أمر عادى ، بل جُزء طبيعيّ من تكوين المرأة ، ضروريّ لها ؛ كما أن (الأوكسجين) ضروري للتنفّس فالمرأة تنتفع بهذه الرغبة الجنسيّة وتستخدمها استخداماً صحيحاً لإخصاب حياتها وإنعاشها .

والمطالب الإنسانية التى لا تستطيع المرأة الاستغناء عنها لا تشمل أبداً الحب الجسدي ، وهذه المطالب هي : العطف والحنان والإحساس بالتفوّق والتقدّم ، والمركز الاجتماعي ، والشعور بالطمأنينة ؛ فهذه المطالب الأربعة هي الضرورات الدائمة .

أما الحاجة إلى الجنس فهي شوْق عابرمتنقّل ، بل إنها على التأكيد عذاب أليم عميق الجذور ، ولكن هذا العذاب يمكن مواجهته بممارسة نشاط بدنيٍّ عنيف ، والانغماس في عمَل حِرَفيّ مما قد يفوق الطاقة البشريّة ، وبالتطوّع في عملٍ خيْري يستغرق الوقت والجهْد كله .

أما الانغماس في العلاقة الجنسية فليس حلّاً للمشكلة ، ولقد أخبرتني يوْماً ، إحدى مريضاتي بصراحةٍ مطلقة أنها تفكّر جدِّياً في

ممارسة العلاقة الجنسية مع شخص ما ؟ مع رجُل متزوّج !! ولقد حاولت أن أشْرح لها معنى هذا العمل ، فقد كان ذلك معناه أن تتخلّى عن أصدقائها وأن تكذب على أهلها وأن تقْبل وتعترف بأنها زوجة – بعض الوقت – بل زوجة في الخفاء ، مع وجود زوجة أخرى حقيقية ذات أطفال وتحظى باحترام المجتمع ، وكان عليها أن تبدأ تلك العلاقة التى لن تدوم سوى بضْع سنوات تغدو بعدها وحيدة منبوذة !! ، ولكن مريضتي كانت قد أمْعنت الفكر في هذه العلاقة في ضوْء تلك الأحْوال المحزنة كلها . وعقدت العزْم على تنفيذ قرارها .

أما أنا فقد قلت لها : عودي إليّ بعد ثلاث سنوات عندما تكون تلك العلاقة قد وصلت إلى نهايتها فإني سأحاول يومئذٍ أن أُعيد جَمْع شتات حياتك .

وقد عادتْ ...

عادت إليّ بعد نحو ثلاث سنوات ، ولكنها عادت بعد أن جَفّتْ ونَضَبَتْ وأصبحتْ بلا إرادة . لقد انتهت العلاقة الجنسية وكانت مريضتي تدفع الآن ثمنها الباهظ ، لقد ركَدَتْ خلال تلك السنوات وتخلَّفتْ ، وتركها أصدقاؤها فأصبحوا غُرباء بالنسبة لها ، وسوْف تحتاج إلى وقت طويل جدّاً حتى تستطيع أن تلحق بالرَّكب الذي خَلّفَها وراءه .

و (بلوغ) المرأة – سواء كانت متزوّجة أو غير متزوّجة – عامها الخمسين سالمة آمنة ، دون أن تتعرّض حياتها العاطفيّة لهزّاتٍ

عنيفة ، يتوقف إلى حدٍّ كبير على الطريقة التي تستخدم بها طاقتها الحيويّة خلال السنوات التى تكتسحها فيها هذه الطاقة ؛ فإذا احترمتْ طاقتها الحيويّة وأيقنت أن في وُسْع هذه الطاقة الهائلة أن ترهقها ، فإن تلك الطاقة لن تُؤْذيها .

وإذا استخدمت المرأة طاقتها الحيويّة في مساعدة نفسها وغيْرها ، وفي بذْل معونتها وحيويّتها وعَطْفها للأصدقاء ، أو لأولئك الذين يحتاجُون إلى رقّتها وحنانها ، أو في مجالات النشاط الحيويّ الأُخرى ، فإن حياة تلك المرأة تُصْبح خصبة غنية مُجْزية .

ومهما يكُن من أمْر فإن الطاقة الحيويّة لدى المرأة يمكن أن تكون قوّة مضيئة باهرة الجمال ، أو يائسة موحشة ، ولكنها لنْ تستطيع أبداً التقليل من شأنها] إ هـ .

رغم طول المقال ، أحببت إيراده بتفصيله لأهميّته ، دُون المسِّ بأيّ مَقْطَعٍ منْه ، نظراً لتسلسل الحقائق ، وتتابعها في وحْدةٍ موضوعيّة وكلها تشير إلى القيمة الأساسية للأنوثة ، كما تشير إلى وُجوب التنبُّه لها ، وصقْلها وتهذيبها ، وتوجيهها الوجهة التربويَّة السليمة ، مِمّا لَهُ وثيق الصلة بموضوع بحثنا .

الأُسْرةُ ... وعمادُها

الأسْرة .... أو الخلّية الاجتماعية الأولى ، أو اللّبنَةُ الأساسيَّةُ في تكوين المجتمع ... ، مهما تنوعت الأسماء ، وتعدّدت ، تظل من حيْث الأساس و الشكل ذات مدلولٍ واحد .

ولا يعزُب عن البال أنَّ لها معنىً في (اللغة) آخر ، لوْ مُحِّص من ناحية الدلالة العامّة لتوافق معها .

إذا يُقال : أُسْرةُ المرء : أَهْلُهُ ؛ ويقال : الأُسْرةُ : الدِّرْعُ الحصينة . والأهل ؛ عادةً وعُرْفاً : زوجةُ المرء وأولاده ، فهي العناصر الثلاثة التي تتكوَّن منها الأسْرة ، وما مِنْ شَكّ أبداً فى أَنَّ كلّ عُنْصر من هذه العناصر يشكّل (الدِّرْع الحصين) للآخر ، في كُلّ شأنٍ من شئون الحياة ؛ ولنَنْظُر بإمعان إلى قَوْل الله تعالى : ﴿ **هُنَّ لباسٌ لكُم وأَنْتم لباسٌ لهُنّ** ﴾[1] ، إذ أَسْهَبَ العلماء المفسرون في تحقيق معنى اللِّباس ، حتى رأى بعضُهُم من خلال (التَلبُّس) وحْدة التكوُّن ، وذَوَبان الذاتيْن في ذاتٍ واحدة ... ! خصوصاً في حالة الجماع الذي يُنْتج (كياناً) إنسانيّاً جديداً ، بِفَضْلٍ من الله ورحمة ؛ ﴿ **ذلِكَ تَقْديرُ العَزيزِ العليم** ﴾ .

---

(١) البقرة (١٨٧) .

هذه الأُسرة (الخليّة) لها قوّام واحد هُوَ الرَّجُل ، رأْسُها والقائم على شئونها ، ومُصرِّف أمورها ، المنْفق على أفرادها ، والساعي على رِزْقها ، ودرجتُه في هذه الاختصاصات أرْفع من المرأة ﴿ **ولِلرِّجال عَلَيْهِنَّ درجة** ﴾ ... .

وهذه الاختصاصات ، أو أكثرها ، تَنْصَبُّ من (الخارج) إلى (الداخل) ، أي أنَّ الرَّجُل يحملُ إلى الأُسرة من نتاج السَّعْي والكفاح ومواجهة هموم الحياة وشجونها ما يُهيّيء للأسرة (داخل) الحرم المنزلي أسباب السعادة والرخاء ، والفلاح والنجاح ؛ ومن هذه الزاوية الاجتماعية كانت (القوامَة) : ﴿ **الرجالُ قوّامُون على النِّساء بما فَضَّل الله بعضهم على بعض** ﴾ ؛ والتفضيل هنا ليْس مَزِيَّةً بقدر ما هُو اختصاصٌ ودَوْر .

بالمقابل هناك المرأة [(الزَّوْجة) — (الأُم)] ووظيفتها ودوْرها في القيام بتدبير شئون منْزلها ، ورعايتِهِ وحِفْظه ، والسَّهر على أرْكانه المادية والبشرية بآعتناءٍ وأداءٍ وتوجيه .

ونعني بالأركان البشرية : والزوْج والأولاد .

فهي تقوم نحو الزوْج بواجب الزَّوْجيّة كاملاً ، من غير تفريطٍ ولا إفراط ، حسبْ مُقْتضيات ومُتَطلّبات القواعد الشرعيّة ، والأصول والأعراف الإنسانية ... ، مع صيانةِ حقوقها كاملةً غير منقوصة ، الأدبيّة والمادِّية .

وكُلّما كانت على مُستوى المسئولية – بهذا الصَّدد – ، أَضْفَتْ على الحياة الأُسريَّة – جوّاً من الاستقرار والهناء والرخاء ،يقارب الكمال .

ولا يفوتنا أن نُذَكِّر – أنفسنا والقارىء العزيز – بما بيّنَهُ رسول الله « ﷺ » في معني قَوْل الله تعالى : ﴿ **ربَّنا آتنا في الدُّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة** ﴾ . إذا قال (عليه الصلاة والسلام) : « إن حَسَنَةَ الدُّنيا هي المرأة الصالحة ، كما أن حسنة الآخرة هي الجنة ... » .

وفي هذا القرآن ما فيه من إشاراتٍ لطيفة ومعانٍ سامية .

ويأتي دَوْر الأبْناء بعد الزَّوْج ، في ترتيب لا يحمل إطلاقاً معنى الأولويَّة والأسبقيَّة ، بل هو من مقتضى التسلسل في البحث والموضوع فقط ... .

إن المرأة الصالحة ، ذات المستوى الرفيع في النضوج والإدراك ، الراعية المراعية لحقّ الزوْج والزوجيّة ، لا شكّ أنها تعي مَسْؤليَّتها في تربية الأبناء ، التربية السليمة ، وتحصيينهم بكُل خُلق وفضيلة ، ومدِّهم بكل مَدَدٍ طيب وكريم ؛ وإحاطتهم بكل رعايةٍ وعناية ، وتهيئتهِم لمواجهة الحياة .. .

وما من شك في أن فاقد الشيء لا يُعطيه ، وعليْه فإن ما نأمُله ونتمنّاه لأجيالنا من عِلْمٍ وخلُق ، و ... دين ، لا بُدَّ أن يتوفّر أوّلاً في (الأُمّ) ، قوْلاً وعملاً ... .

وَلنلاحظ بأن دورها ، أوْ وَظيفتها إنما هُو عمليَّةُ (تَصْدير) من (الداخل) إلى (الخارج) ، من البيْت إلى المجتمع ، من بيْن الجدران الأربعة إلى ميدان الحياة الفسيح ، بكل عجيجه وضجيجه ، بكُلّ نماذجه البشرية وتعقيداته ، ومشاكله ومتاعبه . إذاً ... ، لا بُدَّ من أنْ يكون المناضل مُهيَّئاً ومُستَعدّاً ، والفضْل - كل الفضل - في انتصاره وآستوائه من غير هزيمةٍ أو انحراف ، مرجعُهُ إلى (الأمّ) .

ولنُلاحظ أيْضاً بأنَّ الدَّوْر الذي تَضْطلع بعبئِهِ أعظم وأشَق من دَوْر الرجُل (الأب) ، وأكثر مسئوليةً ، وأكبر خطراً .

وإلّا فإن حديث رسول الله « ﷺ » ، أو أحاديثه ، عن مكانة الأمومة ، تَظَلُّ من غَيْر مضمون - وحاش لله ورسُوله - !! .

[أمُّك ... ، أمُّك ... ، أمُّك ... ، ثُمّ أبوك] .

قالها (عليه الصلاة والسلام) مردِّداً ومؤكّداً لِلَّذي سَأَلَه : « من أحقّ الناس بصُحبتي ؟ »[1] .

فمن دون كُل البشر ، إخوةً كانوا أمِ آباءً ، أم أقرباء أم أصحاباً ، أَمْ غير ذلك ، فإنّ (الأُمّ) - الصالحة المؤدِّبة المربية - تَظلُّ في مقامها الانساني متربِّعةً على عروش القلوب ، وهي (عمادُ) الأسْرة .

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « أمُّك » قال : ثم من ؟ قال : « ثم أمك » قال : ثم من ؟ قال : « ثم أمك » . قال : ثم من ؟ قال : « ثم أبوك » .

نماذِج إسْلاميّة

من الجاهلية إلى الإسلام كانت النّقْلة كبيرةً للمرأة ... .

ولستُ أتوقف في المدى الزمنيّ لكلمة (الجاهلية) ومدلولها عند حدود الجاهلية العربية ، بل توجّهي فيها يَشْمل المدى الطويل الذي عاشتْه البشريّة والانسانِيّةُ بعيدةً عن شَرْع الله ودينه الذي أنزله على أنبيائه ورُسُلِهِ ، أو انْحرفتْ عنه فآستغْرقتْها شهواتُها وأهواؤها ، واستبدَّتْ بها نزعتها الحيوانيّة وشيطانيَّتها .

انتقلت المرأةُ بالإسلام .... ، والأحرى أن نقول : انتقل الإسلام بالمرأة من طوْر الانحطاط والعَدَميَّة إلى الكيان الإنساني والعنصريّة البشرية ، ثم بوأها مقاماً سامياً ، وخصَّها بدورها العظيم الذي أعدَّها الله تعالى لهُ ، دَوْر الأمومة وصُنْع الأجيال ، وإنّي لألْحظُ فيه أعظم دَوْرٍ في الحياة ..!! .

ولكي نكون منصفين ومثاليِّين في اختيار النّماذج الإسلامية ، نُعوِّل على المرأة المسلمة في العصر النبوّى ؛ لأنه القدوة والنموذج الرفيع ، ولِئن أطَلْت في استعراض بعض الأسماء والشخصيات فعُذري أنَّ ضرورة البحث تقتضي ذلك .

« **سميَّة بنت خباط** » أم « عمّار بن ياسر » – رضى الله عنهم – كانت سابعة سبعةٍ في الإسلام ، عذّبها آل بني المغيرة على الإسلام،

وهي تأبي غيره ، وكان النبيُّ « ﷺ » يمُرُّ بها وبزوجها وولدها وهُمْ يعذّبون بـ « الأبطح » في رمضاء « مكة » فيقول : « صبْراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة » ؛ وما زال « أبو جهل » في شرذمةٍ من السُّفهاء يضربونها ويسيلون دمها حتى طعنها بحَرْبةٍ في موضع العفافِ منها فقتلها ، فكانت أوّل شهيدةٍ في الإسلام .

المهاجرات بدينهنّ إلى الحبشة :

« رُقيّة » بنت رسُول الله « ﷺ » ؛ و « سهْلة بنت سهيْل » – على الرغم من أبيها – و « أم سَلَمة » [هند بنت أبي أميّة] أم المؤمنين فيما بعد ، « ليْلى بنت خَثمة » و « أمّ كلثوم بنت سهيْل » و « أسماء بنت عُمَيْس » و « فاطمة بنتْ صَفْوان » و « أمينة بنتُ خَلَف » و « رمْلة بنت أبي سفيان » – أم حبيبة ، وأم المؤمنين فيما بَعْد ، و « بركَةُ بنتُ يسار » و « سوْدة بنت زمْعة » – أم المؤمنين فيما بعد .

الشاعرة « **الخنساء بنت عمرو** » التي حضرتْ حَرْب القادسيّة ، ومعها بنوها أرْبعةُ رجال ، فحرَّضَتْهم على القتال ونَصْر الإسلام ، إلى أن استشهدوا جميعاً ، فلما بلغها نَعْيُهم قالت : [الحمدُ لله الذي شرَّفني بقتْلهم ، وأرجو الله أن يجمعني بِهِم في مُسْتَقَرِّ رحْمته] – الإصابة في تمييز الصحابة – .

« **خوْلة بنت مالك** » – المجادلة – :

لقيها « عمر بن الخطاب » أمير المؤمنين – رضى الله عنه – في

الطريق ، فَسَلَّم عليها ، فردَّتْ عليه السلام وقالت : [هِيهِ يا « عُمر » ... عَهِدْتكَ وأنت تُسمّى « عُمَيْراً » في سوق عُكاظ ، تروِّعُ الصِّبيان بعصاك ، فلم تذهب الأيام حتى سُمِّيتَ « عمر » ... ، ثم لم تذهب الأيام حتى سُمِّيت « أمير المؤمنين » ، **فاتّق الله في الرعيَّة ، واعلم أنّه من خاف الوعيد قرُب عليه البعيد ، ومن خاف المْوتَ خَشِيَ الفوْت**] .

فقال « الجارود » : قد أكثَرْتِ على أمير المؤمنين أيَّتها المرأة !!؟ .

فقال « عمر » : دعْها ... ، أما تعرِفُها ؟ هذه « خوْلة » امرأةُ « أوس بن الصامِتْ » التي سَمِعَ الله قوْلها من فوْق سبْع سماوات ، ف « عُمرَ » أحقّ أن يسْمع لها . — (الإصابة في تمييز الصحابة) .

« **فاطمة بنت قَيس الفِهْريّة** » — في بَيْتها آجتمع أهل آلشُّورى لاختيار خليفة للمسلمين أمير المؤمنين « عُمَر » ، لعقلها وكياستها ، واطمئناناً لِسِرِّيَّتها وسرِّيَّة بيْتها .

« **أمُّ سلمة** » أم المؤمنين (هنْد بنت أبي أُميَّة) ؛ أشارت على رسُول الله « ﷺ » في غزوة « الحُديْبية » حين تمَرَّد عليه أصحابه وعَصَوْه بعْد أن أمرهم ثلاث مراتٍ بالنَّحْر والهَدْيِ و الحلْق والإحلال ، فما قام منهم أحد ولا تحرّك ، وهم غضاب مُنكرون ... ، أشارت عليه أن يخرج هو ويَصْنع بنَفْسه فَفَعل .. ، فوثبوا إذْ ذاك إلى هَدْيِهم فَنحروه ، وأكبَّ بعضهم يَحْلقُ بعضاً حتى كاد بعضهم يغمى عليه من شدّة الزّحام .

المبايعاتُ بيعة العقبة :

« نسيبة بنت كعب » – أم عمارة – ، البطلة المجاهدة المقاتلة ، و « أسماء بنت عمرو » و « أمّ منيع » .

المهاجرات إلى المدينة :

« أم كلثوم بنت عُقْبة بن أبي معبط » ؛ قال « ابن سعد » : هي أول من هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبي « ﷺ » ؛ ولا نعلم قرشيّةً خرجت من بيْن أبويْها مسلمةً مهاجرةً إلى الله ورسُولِهِ غيرها ، خرجت من « مكة » وحدها .

وإن المرأة المسلمة في العصر النبويّ لم تترك الرجال ينْفردون بشيءٍ دونها ، فلم تكتفِ بأن تُسْلم وتغلق عليها دارها ، بل تابعت الدين الجديد في جميع مراحله ، إيماناً وعذاباً في سبيله ، وهجرةً له ، ودعْوة إليْه باللسانِ والسيْف !! في نفسها ومع عشيرتها ، من زوْج وولدٍ وأهْل ، في غيْرةٍ وحماسٍ واستماتةٍ ، وتفرغ لذلك ليلها ونهارها ، سَفَرها وحضرها ، إقامتها وهجرتها ، عذراء وزوْجاً وأمّاً ، فبارت الرجال وسبقتْهُم أحياناً ، فكان أوّل المؤمنين منها ... ، وكذلك أوّل الشهداء ، وأوّل من ردَع فتنة تمرّد . .

مِن هؤلاءِ :

« **سمراء بنت نهيك** » كانت تؤدّب الناس وبيدها سوْط ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر – (مجمع الزوائد) (ج ٩) (ص ٢٦٤) .

استشار « عبد الله بن الزبيْر » أمير المؤمنين « أمّه » « **أسماء بنت أبي بكْر** » (ذات النطاقيْن) في حَرْب الخوارج عليها : « الحجاج بنت يوسف » و « عبد الملك بن مروان » وقد دعوه إلى الاستسْلام ، فقالت : [إن خرجْتَ لإحياء كتاب الله وسُنّة نبيِّه فإنّ الشاة لا تُعذّب بالسَّلْخ ، فمتْ على الحق ؛ وإن كُنْتَ إنّما خرجْت على طَلَب الدُّنْيا فلا خَيْر فيك حيّاً ولا ميّتاً !! يا بُنيِّ : مُتْ كريماً ولا تَسْتَسْلم] – مستدرك الحاكم (٤ – ٥٢٥) .

« **أُمُّ سليم** » أم « أنس بن مالك » – رضى الله عنه وعنها – : خطبها « أبو طلحة » قَبْل أن يُسْلم ، فقالت له : [أفلا تَسْتحي !!! تعْبد شجرةً !؟ إن أسلمْتَ فإني لا أريد منْك صداقاً غير الإسلام] قال : حتى أنظر في أمْري ... ، فذهب ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسُول الله ؛ فتزوَّجته ، وكان صداقها الإسلام وحده .

« **أم شريك** » – القرشية ؛ أسلمت ثم جعلت تدخل على نساء قريش سِرّاً فتدْعوهُنَّ وترغبهُنَّ في الإسلام حتى ظهر أمرها لأهل « مكة » فأخذوها وعذّبوها بالتَجْويع والتعطيش أيّاماً وتركوها تحت حرِّ الهاجرة والشمس ثم قالوا : لوْلا قَوْمُك لفعلْنا بكِ وفَعَلْنا .

« **أُمُّ شريك** » – الأنصارية – امرأةٌ غنيّة ، عظيمة النفقة في وجوه الخيْر ونَشْر الإسلام ، كان بيْتها مثابةً للضّيفان وأهل الحاجة من المسلمين .

« **عَفْراء بنت عبيد** » – النجّاريّة – لها سبعة أولادٍ رجال ، شهدوا كُلّهم « بَدْراً » مع رسول الله « ﷺ » .

« **حوّاء بنت عبيد** » – الأنصاريّة – زوجة « قيس بن الحطيم » – الشاعر – ؛ كان يصدّها عن الإسلام ويؤْذيها ويَسْخر منها ، ويأتيها وهي راكعة ، فيكشفها ويضع ثيابها على رأسها ، ويأتيها وهي ساجدة فيقْلبها على رأسها ، ويقول لها : إنّك لتُؤْمنين بدينٍ لا يُدْرى ما هوى !!؟ .

وإلى صُورةٍ أُخرى من صُوَر المرأة المسلمة ... .

لقد جَدَّتْ واجْتَهَدَتْ ، لتَعْرف وتتعلَّم وتفوز بالحكمة التي رفعت أصحابها إلى الدَّرجات العُلى ، فصلَّتْ وجلَّتْ إلى أن سبقت الكثيرين من الرجال ، وهي التي كانت في جاهليّتها أُمّيّةً لا تقْرأ ولا تكتُب ، في أمّةٍ أمّية لا تعرف كتاباً ولا خطّاً ، فضمّت إلى عملها الظافر في الإيمان والدعْوة ، والهجرة والجهاد ، عملاً آخر برّزتْ فيه وظهرت ، حتى صارت مَرْجعاً وحُجّةً لكثيرين من الرجال ، قادة وأئمّة .

شاركت الرجُل فبزّتْه في الاتْقان والتخصُّص أحياناً ، في علومه المختلفة وفنونه المتنوّعة ، من عِلْم عام وتفسير وحديث وفقْه وفتْوى ، واجتهادٍ فيها ، ومن أدبٍ وشعْر وخطابةٍ وكتابةٍ ومعرفةٍ بالطب والسياسة والرواية والتاريخ والتدريس والنَّسب ، فأسهمت بكل ذلك في تشييد حضارة الإسلام ، وبَنَتْ عالماً جديداً ، ومدنيّةً جديدة للإنسانية .

فمن العالمات ، عِلْما عاماً :

« **فاطمة** » بنت رسول الله « ﷺ »، و« **عائشة** » – أم المؤمنين – ، و « **حَفْصة** » – أم المؤمنين – و « **أسماء بنت أبي بكر** » و « **الرُّمِيْصاء** » و « **أمّ عمارة** » .

ومن الفقيهات :

« **زينب بنتُ أبِي سَلَمَةَ** » قال « أبو رافع الصائغ » : [كُنتُ إذا ذكَرْتُ امرأةً فقيهةً بالمدينة ذكرْتُها ؛ وهي أفقه امرأةٍ بالمدينة] ؛ و « **عائشة** » – أم المؤمنين – ؛ قال « عُرْوة » : [ما رأيْتُ أحداً أعلم بفريضةٍ ، ولا بحلال ولا بحرام ، ولا بفقهٍ ، من « عائشة »] ؛ وقال « مَسْروق » : [والله لقد رأيْتُ المشْيَخَة الأكابر من أصحاب رسول الله « ﷺ » يسألون « عائشة » عن الفرائض] ؛ وقال « عطاء » : [كانت « عائشة » أفقه الناس وأعلم الناس] – الحلية لأبى نعيم – (ج ٢) (ص ٥٠ – ٦٦) .

أضف إلى ذلك مقامها في الفُتْيا والتفسير ؛ قال « ابن حزم » : [يمكن أن يجمع من فُتياها سِفْر ضَخْم] وقال « عُروة » : [ما رأيْتُ أحداً أعلم بالقرآن من « عائشة »] .

ومن الأدبيات :

« **أرْوى بنت عبد المطلب** » –عمّة النبيّ « ﷺ » – و « **الخنساء** » – الشاعرة – ؛ و « **زيْنب بنت العوّام** » أخت « الزُّبيْر » ، و « **سعدى بنت كُرَيْز** » و « **الشيماء بنت**

الحارث » أخت النبيّ « ﷺ » من الرضاعة ؛ و « **عاتكة بنت زيْد** » و « **قتيلة بنت النّضْر** » ، و « لُبابَة بنت الحارث » – أم خالد بن الوليد – ، و « **رقيقة بنت أبي صيفيٍّ** و « **ضبُاعة بنتُ عامر** » و « **فارعة بنت ثابت** » و « **كبْشة بنت رافع** » و « **أمّ ذَرّ** » – زوجة « أبى ذَرّ و « **أم رعْلة القُشَيْريّة** » ، و « **أسماء بنت يزيد بن السَّكنْ** » – خطيبةُ النِّساء .

ومن المدرِّسات :

« **فاطمة بنت الخطّاب** » ، و« **الشّفاء بنتُ عبد الله** » علَّمتْ « حَفْصة » – أم المؤمنين – الكتابة بعلْمِ رسول الله « ﷺ » .

ولهذه الأمثلة ، والنماذج الحيّة ، للمرأة المسلمة المتعلّمة العالمة ، في العصر النبويّ ، أَوْجب أَئمةُ الاجتهاد (وجوب تعليم البنْت تعليماً شاملاً ؛ كما هو واجب على الذّكَر ، سواء بسواء ، تعليماً يصل بها إلى درجة هؤلاء النّسْوة عِلْما ورسُوخاً .

أَوْجبوه لها وعليها ، كما أُوْجبوهُ على أوليائها من حاكم وأبٍ وزوْج ، فإن لم يوجد ببلدها عِلم ولا علماء ، فقد أوجبوا عليها وعلى أوليائها أن تَرْحل لطلب العلم ، أو أن تُرَحَّل من أَجْله ، قَرُب المكان أَوْ بَعُد .

ولقد وَصَلنا عن طريق المرأة المسلمة كثير من أحكام الإسلام ، واحتج بنقْلها وروايتها جميع المسلمين ، على اختلاف آرائهم ومذاهبهم ، ومُسْتويات اجتهاداتهم .

يقول « ابن حَزْم » : [ولوْ تفقّهت امرأةٌ في علوم الديانة لَلَزِمنا قبول درايتها وقد كان ذلك ، فهؤلاء أمّهات المؤمنين ، وصواحب رسول الله « ﷺ » قد نقل عَنْهُنّ أحكام الدين ، وقامت الحُجة بنقْلِهِنّ ، ولا خلاف بَيْن أصحابنا وجميع أهل نحلتنا في ذلك] - (الإحكام في أصول الأحكام) (ج ٣) (ص ٨٢) .

وذهب « أبو اسحاق الاسفراييني » إلى أن الأحكام والأحاديث التي يرويها الرجال والنساء إذا تعارضت فالمقدَّم مَرْويُّ المرأة ، وإن كثيراً من النساء أضبط من كثير من الرجال ؛ وقد صَوَّبه « الزرْكشيُّ » وأقَرَّهُ « العراقيّ » - الحكومة النبوية - (ج ٢) (ص ٢٣٥) .

الإمامة النسويّة :

ازدادت المرأة ثقة بنفسها ، واعتزازاً بمقامها ، وغبطة بإسلامها ، وارتقت إلى مشاركة الرجل في أعظم شعيرةٍ من شعائر الإسلام وهي الصلاة ، فكانت إمامةً للنسوة ، في حياة رسول الله « ﷺ » ، وبعِلْمه ، بل أَمَرَهُنَّ (عليه السلام) بتلك الإمامة .

تقول « ريطة الحنفيّة » : [إن « عائشة » أم المؤمنين امّتْهُنّ في صلاة الفريضة] (سنن الدارقطني : ١٥٥) .

وتقول « تميمة بنت سلمة » : [أمّت « عائشة » نساءً في الفريضة في المغرب ، وقامت وسطهُنّ ، وجَهَرَتْ بالقراءة] (المحلّى : ٣ : ١٢٦) .

وتقول « حجيرة بنت حصيْن » : [أمَّتْنا « أم سلمة » – أم المؤمنين – في صلاة العصْر ، وقامت بيْننا] (طبقات ابن سعد : ٨ – ٣٥٦) .

وروى عن « ابن عباس » – رضى الله عنهما – [تُؤُم المرأة النساء في التطوُّع ، تقوم وسطهُنّ] (المحلى : ٣ – ١٢٨) .

ورُوى عن « ابن عمر » – رضى الله عنهما – أنه [كان يأْمر جاريةً له تؤُم نساءه في ليالي رمضان] (المحلى : ٣ – ١٢٨) .

وقال « إبراهيم النَّخْعي » و « الشعبي » [لا بأْس بأن تصلّي المرأة بالنساء في رمضان وتقوم وسطهن] .

وقال « عطاء » و « مجاهد » و « الحسن البصرى » : [تجوز إمامة المرأة للنساء في الفريضة والتطوّع ، وتقوم وسطهُنَّ في الصف] (المحلى : ٤ – ٢١٩) .

الولاية

وآختار « عمر بن الخطاب » – رضى الله عنه – زمن خلافته ، لمنْصب الحسْبة وولايَة السُّوق امرأةً مُسْلمة ، هي « ليْلى بنت عبد الله القرشية » – العدويّة – ولقَبُها : (الشَّفاء) .

أسلمتْ قبل الهجرة ، فهي من المهاجرات الأوليات ، وكانت من عاقلات النساء وفضْلياتِهنّ ، وكان رسول الله « ﷺ » يعرف لها

ذلك ، فيزورها في بيْتها ويقيل عندها ، وكانت قد اتخذت له فراشاً وإزاراً ينام فيه ، ومنحها داراً بالمدينة .

وكان « عمر » يقدّمها ، ويرعاها ، ويرضاها ، ويفضّلها .

وتأييداً لهذه التولية من « عمر » – توليته (الشِّفّاء) – ، واحتجاجاً بعموم موقف المرأة المسلمة من الدولة الإسلامية ، مؤمنة ومهاجرة ، وداعيةً ، ومتعلّمة .... ، صَرَّح جماعةٌ من أئمة الفقهاء مجتهدين ومقلدين ، بصلاحيتها للولاية والحكم ، وجواز مشاركتها الرجل في إدارة شئون الدولة ، حُكما وقضاءً ، باستثناء الإمامة الكُبْرى ، والقضاء في الحدود والقصاص .

الفصل الثالث

الفضيلة بين الدُّنيا والآخرة

هل ينحصر مُتَعلَّقُ الفضيلة بالثواب الأُخرويِّ وحده ؟

أي أنَّ المرء في انتهاجه سُبَل الحياة ، على صعيد فرديَّته أو أُطُره الاجتماعية المختلفة ، وفْق أوامر الله سبحانه ونواهيه ، وآنضباطه حسبْ القانونّ الإلهي ... ، متسَلِّحاً بسلاح الفضيلة ذاتاً وقوْلاً وفعْلاً ، لمكابدة تيارات الحياة المتردِّدة ، ومصارعة عُتوِّها ... .

هذا المرء ليس لهُ من محصِّلةٍ سوى الثّواب الأُخرويِّ إزاء كُلِّ ما قدَّم وأعطى ، وأيضاً فليْس لِتِلْك الفضيلة من (ثواب) دُنيَويٍّ ؟ !! .

هذا التصوّر الواهم لهُ أركانُهُ وجُنْده ، ونقول آسفين : بأنَّهُم الأكثريّة الساحقة من الناس ، فأقْدم بعضهم على التلبُّس بهذا الوهْم ، وأحْجم آخرون ، وكلا الطرفيْن يبْتر الحقيقة المنطقية الإيمانية ، بأن الأولى والآخرة وحدة لا انفصام لها .

المؤمن يعتقد ، ولا يتصور ، بأنَّ دنياهُ وآخرته متلازمتيْن ، وما الفاصل بيْنهما إلّا عمليّة انتقال ، من فانيةٍ إلى باقية .. ، وأنَّ دُنْياهُ أَيْضاً بالإضافة إلى أنها ميدان ابتلاءٍ واختبار ، جُزْئيةٌ مَوْصولة .... .

إذاً .. ، فإن مَرْدود كُلّ فضيلةٍ ، ترتكز عليها مسلكيَّتُهُ تنعكس على واقعه الحياتي بقدْرٍ محدودٍ بحدود تلك الفضيلة ، تنعكسٍ بمقاييس الفوْز الحقيقي ، أَمْناً وأماناً ، واستقراراً ، وازدهاراً ، في كُلّ جانبٍ من جوانب حياتِهِ ، في ذاته ... ، وفي عمله ... ، وفي بيْته .... ، وفي أُسْرته .... ، ومجتمعه .

إن فضيلة التربية بالنسبة إلى الفتاة ذات متعلّق دُنْيويّ وأُخْروي ؛ لأنها من ناحية الحصاد بعد الزَّرْع تؤْتي أُكُلها في الحياةِ الدنيا (أُسْرةً) نموذجيَّةً مثاليّة ، ولبِنَةً صالحةً ، قويّةً متينةً ، في بناءٍ شامخٍ ، مهما تعرَّض للأنواء والعواصف والهزات ، يظل متماسكاً ، أَصْلُه ثابت وفَرْعُهُ في السماء .

أصله ضارب في الأعماق ، تمتدُّ جذوره في باطن الكَيان الاجتماعي ، وتنتشر فُروعه إلى عُلُوٍ وبروز ، واطراد ازهارٍ وإثْمار .

ذلك خِصْبُ الفضيلة في الحياة الدُّنيا ، فمن زَرَع وغرس فيها ، أعْطتْه أَيْضاً .... ! ثم يستمرُّ العطاءُ إلى الآخرة وفيها ، وهو أعظم وأَبْقى .

والخِصْبُ الدنيويّ هل هُو حقيقة قائمةٌ ماثلة ، أم أنه مُجرَّدُ كلام !!! يُضْفي عليه من تزويق العبارة وتنميق المقال ما يُدَغْدِغ النفوس والأرواح ؟؟ .

إنّه الفرْقُ بيْن الإيمان والكُفْر ، وبيْن الاعتقاد والإلحْاد ... ؛

ولوْ أنّنا تتبَّعْنا حِقَبَ الإشراق في حياة الأُمّة الإسلامية ، لأدركْنا من غيْر ريْبٍ أنّها كُلّما اشتدَّ لصوقها بدينها ، وانتظمت حياتها به ، سَمَتْ وارْتقت ، وأنها كلما أدْبرت ونفرتْ ، اندحرتْ وتراجعت ، وآدَّاركت إلى ذيْل المجتمعات وسحيق التأخّر والانحطاط .

وهذا على العُموم ..

أما على الخصوص ، فإنّ المرأة المسلمة في مختلف مراحل حياتها ؛ من فتاةٍ إلى زوجةٍ إلى أُمّ ، فإنّها المعوَّل عليْها ، في صُنْع الأجيال والرِّجال ... ، فكلّما كانتْ حيَّة العقيدة ، والتصوُّر والمنهج كُلّما (صَدَّرت) للمجْتمع أعلى النماذج من القادة والحكّام وكُلّما (أُقْصيتْ) أو (تخلَّتْ) عن وظيفتها ودَوْرها ... ، كُلّما تداعى البناء .... بسبب وحداتِهِ الهشّة ، وآنْهار ... ! .

الأدِلَّةُ النَّقليَّة

١ – عن « عبد الله بن عمرو » – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله « ﷺ » :

« كفى بالمرءِ إثماً أن يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوت » – رواه أبو داود والنسائي ؛ – والحاكم إلّا أنه قال : « مَنْ يعُول » وقال : صحيح الإسناد .

٢ – عن « الحسن » – رضي الله عنه – عن نبيِّ الله « ﷺ » قال :

« إنّ الله سائِل كُلّ راعٍ عمّا آسْتَرْعاه ، حَفِظَ أَمْ ضيَّع ، **حتى يَسْأَل الرَّجُلَ عن أَهْلِ بَيْتِهِ** » – رواه ابن حبّان في صحيحه .

٣ – عن « أنس بن مالك » – رضى الله عنه – قال : قال رسُولُ الله « ﷺ » :

« إنّ الله سائلٌ كُلَّ راعٍ عمّا آسْتَرْعاهُ حَفِظَ أم ضيَّع » زاد في رواية : « حتى يَسْأَل الرجُلَ عن أَهْل بَيْته » – رواه ابن حبّان في صحيحه أَيْضاً .

٤ – عن « ابن عمر » – رضى الله عنهما – قال : سمعْتُ رسول الله « ﷺ » يقول :

« كُلُّكُم راعٍ وكُلُّكُم مسئول عن رعيَّتِهِ ، الإمامُ راعٍ ومسئول عن رعيّته ، **والرَّجُل راعٍ في أهْلِهِ ، ومسئول عن رعيّته ، والمرأة راعيةٌ ، في بيْتِ زوْجها ومسئولة عن رعيَّتها ، والخادم راعٍ في مال سيِّده ومسئول عن رعيَّتِهِ** ، وكُلُّكُم راعٍ ومسئول عن رعيّتِهِ » – رواه البخاري ومسلم – .

٥ – عن « عائشة » – رضي الله عنها – قالت :

« دَخَلَتْ عليَّ امرأةٌ ومعها آبنتان لها ، تَسْأل ، لم تَجدْ عندي شيْئاً غيْر تَمْرةٍ واحدة ، فأعطيْتُها إيّاها ، فقسمتْها بيْن آبنتيْها ولم تأْكُل منها شيْئاً ، ثُمّ قامتْ فخَرَجَتْ ، فدخل النبيُّ « ﷺ » عليْنا فأخْبَرْتُه فقال :

« **من آبْتُلِيَ من هذه البناتِ بشيْءٍ فأحْسَنَ إليْهِنَّ كُنَّ له سِتْراً من النار** » » – رواه البخاري ومسلم والترمذي ، وفي لفْظٍ له : « من آبتُلي بشيْءٍ من البنات فَصَبَرَ عليْهِنَّ كُنَّ له حجاباً من النّار » .

٦ – وعن « عائشة » – رضي الله عنها – قالت :

« جاءتْني مسكينةٌ تحمل ابنتيْن لها ، فأطْعَمْتُها ثلاث تمراتٍ ، فأعْطَتْ كُلّ واحِدةٍ مِنهما تَمْرةً ، ورفعت إلى فيها تمرةً تأْكلها ، فاسْتَطْعمتْها ابنتاها ، فَشَقَّتِ التّمْرة التي كانت تريد أن تأْكلها بيْنهما ، فأعْجبني شأْنُها ، فَذَكرْتُ الذي صَنَعَتْ لرسول الله ﷺ ، فقال : « **إنّ الله قَدْ أوْجَبَ لها بِهِما الجنّة ، أو أعْتَقها بهما من النّار** » » – **رواه مسلم** – .

٧ – **عن « أنسٍ » – رضي الله عنه عن النبيِّ « ﷺ » قال :**

« **مَنْ عال جاريتيْن حتى تَبْلُغا ، جاء يَوْم القيامة أنا وهُو ، وضَمَّ أصابعَهُ** » – **رواه مسلم – واللفظ له ؛ والترمذي ولفظه :** « **مَنْ عال جاريتيْن دَخَلْتُ أنا وهو الجنّة كهاتيْن ، وأشار بأصْبعَيْه السّبّابَة والتي تليها** » ؛ وابنُ حِبّان في صحيحه ولفظُهُ : قال رسول

الله « ﷺ » : « من عال ابنتيْن أو ثلاثاً ، أَوْ أُخْتَيْن أو ثلاثاً ، حتى يَبِنَّ أو يموتَ عَنْهنَّ كُنْتُ أنا وهو في الجنة كهاتيْن وأشار بأصبعيْه : السبّابة والتي تليها » .

٨ – عن « ابن عباس » – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله « ﷺ » :

« ما مِنْ مُسْلِم له ابْنتان فَيُحْسِن إليْهما ما صَحبتاهُ – أَوْ صَحِبَهُما – إلّا أَدْخلتاهُ الجنّة » – رواه ابن ماجة بإسنادٍ صحيح ، وابن حبّان في صحيحه من رواية « شُرَحبيل » عنه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٩ – عن « أبي هريرة » – رضي الله عنه – قال : قال رسولُ الله « ﷺ » :

« مَنْ كفل يتيماً لهُ ذا قرابةٍ ، أو لا قرابة له ، فأنا وَهُو في الجنّة كهاتَيْن ، ضَمَّ أُصبعيْه ، وَمَنْ سعى على ثَلاثِ بناتٍ فَهُو في الجنّةَ ، وكان له كأَجْر مُجاهِدٍ في سبيل الله ، صائماً قائماً » – رواه البزّار – .

١٠ – عن « عوْف بن مالكٍ » – رضي الله عنه – أن رسول الله « ﷺ » قال :

« ما مِنْ مُسْلِم يكونُ له ثلاثُ بناتٍ فيُنْفق عَلَيْهنَّ حتّى يَبِنَّ أَوْ يَمُتْنَ إلّا كُنَّ له حجاباً من النّار » فقالت له امرأة : أو بِنْتان ؟ قال : « وَبِنْتان » – رواه الطبراني – .

١١ - عن« أبي سعيد الخُدْري » - رضي الله عَنْه - قال : قال رسول الله « ﷺ » : « **من كان لهُ ثلاثُ بناتٍ ، أو ثلاثُ أخواتٍ ، أو بنْتان أَوْ أُختان ، فَأَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ واتّقى الله فيهنَّ فَلَهُ الجنّة** » - رواه الترمذيُّ واللفظ له ، وأبو داود إلّا أنّه قال : « **فأدَّبَهُنَّ ، وأَحْسَنَ إليْهنَّ وزوَّجَهُنَّ فَلهُ الجنّة** » .

وفي رواية للترمذي : قال رسول الله « ﷺ » :

« **لا يكونُ لِأحَدِكُم ثلاثُ بناتٍ أو ثلاثُ أَخواتٍ فَيُحْسن إليْهِنَّ إلّا دخل الجنّة** » .

١٢ - عن « ابن عباس » - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله « ﷺ » :

« **مَنْ كانتْ لهُ أُنثى فَلَمْ يئِدْها ، ولم يُهِنْها ، ولم يُؤْثر وَلَدَه (يعني الذكور) عليْها ، أَدْخَلَهُ الله الجنة** » - رواه أبو داود ، والحاكم قال : صحيح الإسناد .

١٣ - عن « المطّلب بن عبد الله الخزومي » - رضي الله عنه - قال :

[دَخلتُ علي « أُمّ سلمة » زوج النبيّ « ﷺ » فقالت : يا بُنيّ ، ألا أُحَدِّثك بما سمعْتُ من رسول الله « ﷺ » ؟ فقلْتُ : بلى يا أُمّه ، قالت : سَمِعْتُ رسول الله « ﷺ » يقول :

« **مَنْ أنْفق على آبنتيْن ، أو أُختيْن ، أو ذواتيْ قرابة ، يَحْتسِب النفَقة عليْهما حتى يُغْنيهما من فَضل الله ، أو يكفيهما ، كانتا لهُ ستْراً من النّار** »] . - رواه أحمد ، والطبراني - .

١٤ – عن « جابر » – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله « ﷺ » :

« **مَنْ كُنَّ له ثلاثُ بناتٍ يؤوِيهنّ ، ويَرْحَمُهُنَّ ، ويكفُلُهُنَّ ، وجَبَتْ لهُ الجنّة** » قيل : يا رسُول الله فإن كانت اثنتيْن ؟ قال : « وإن كانت آثنتين » قال : فرأى بعضُ القوْم أن لو قال : واحدة ؟ لقال : واحدة ... رواه أحمد بإسنادٍ جيّد ، والبزّار ، والطبراني في الأوسط وزاد : « وَيُزَوِّجهُنَّ » .

١٥ – عن « أبي هريرة » – رضى الله عنه – ، عن النبيّ « ﷺ » أنه قال :

« **منْ كُنَّ له ثلاثُ بناتٍ فَصَبَرَ على لأْوائِهِنَّ وضَرّائِهِنَّ وسَرّائِهِنّ أَدْخَلَهُ الله الجنّة برَحْمتِهِ إيّاهُنَّ** » فقال رَجُل : واثنتانِ يا رسُول الله ؟ قال : « **وآثنتان** » قال رجُل : يا رسول الله ، وواحدة ؟ قال : « **وواحدة** » – رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

نَظْرةٌ في الْأَدِلَّة

نظرتنا في الأدلة هي محْور بحثنا كله ، وعُنوان ، موضوعنا العام ... ! .

ذلك أن الهدْى النبويّ الشريف بحكمته البالغة وإشراقته الناصعة هُوَ الذي يرسم أبعاد (فضل تربية البنات) وينْتظم آماد تلك الفضائل دُنيا وآخرة (يُبيِّن الأُصُول والقواعد التي تقوم عليها التربية) .

ولقد أَوْردْنا الأدلة (جُملةً) واحدةً بغرض شمول النظرة وتواصُل المعاني ، وبسطها كلها دفعةً واحدةً أمام البصر والبصيرة ، ولتتكامل الصورة بجُزْئياتها وظلالها وألوانها فلا يكون هناك أدنى زيْغ أو خلل .

والمنطلق الأول ، أو المرتكز الذي تتمحْور حَوْله حركاتُ الإيجاب أَوْ السلب في إطار البيْت والأسرة ، هو : (المسؤولية) .

يقول مُعَلِّم الإنسانية – صلوات الله وسلامُهُ عليه – :

« إن الله سائلٌ كُلَّ راعٍ عمّا آسترْعاه ، حَفِظَ أم ضَيَّع ، حتّى يَسْأَلَ الرَّجُل عن أَهْل بَيْتِهِ » .

السائل هُو الله تعالى ، والمسئول هُو كُلُّ راعٍ عمّا يقع تَحْت يده ، وفي حوزته (الأمانة) الأدبيّة والمادية التي آسْترعي عليها

وآستُحْفِظ ، بشكْلٍ عامٍ ، يُسْأل : هل حَفِظَ أَمْ ضيَّع ؟ ليكون من ثَمَّ الحسابُ ثواباً أَوْ عقاباً ، ويجيء تحديد الصُّورة الخاصّة من بعد التعميم بسؤال الرَّجُل الذي هُو راعي البيْت ، عن أَهْله ... ، زوجته وأبنائه وبناته .... ، ماذا قدَّم لهم ؟ وماذا عمل من أَجْلهم ؟ وهل راعى ربَّه ودينه ، وأدّى الذي عليْه من واجباتٍ ؟ .

وليست إقامة الرجُل في هذا المقام اختياراً أو تشريفاً ، ولكنّها قَسْر ، وتكْليف ، قلّده إياها دَوْره الطبيعي في الحياة ووظيفتُه الاجتماعية ، وكلّفهُ مَنْ سَنَّ لكُل مخلوقٍ سننه ، ووضع له ناموسه ومَنْهجه ، وأَهَّله وهيّأه ، الله سبحانَهُ وتعالى !!! فلا مناص من السؤال والحساب .

ونتوزّع مسئولية الرعاية للبيْتِ بيْن الرجُل والمرأة ، الزوْج والزوجة ، على ما خَلَّفا وأنجبا ، « الرجل راعٍ في أَهْله ومسئول عن رعيّته ، والمرأة راعيةٌ في بَيْتِ زَوْجها ومسئولة عن رعيّتها » ؟ .

إذاً ... ، فالمرأة (الزوجة) تحْمِلُ نصيبها في الرعاية للبيْت مِن خلال دورها ووظيفتها الطبيعية أَيْضاً ، وهذا الدوْر ، أَوْ هذه الوظيفة لها جهاتها التي تتوجَّهُ إليْها ، وأهمُّها على الإطلاق تَرْبية الأبناء والبنات ، وليْس من ريْب في أن هذا التوجُّه وتلك المسئولية من أعظم ما عرفت البشرية في نشاطاتها الإنسانية والاجتماعية من مهمّاتٍ وواجبات ، خارج نطاق الأسْرة وداخلها .

ونحن إذ نَقُول بتربية الأبناء والبنات لا ننسْى أَهمّيَّة الزيادة المطلوبة في الأُنْثى ، زيادة الاعتناء والملاحظة ... ، لِأَننا نُدْرك دَوْر

الأمومة المفْترض فيها مستقبلاً ، ذلك الدور الذي يصنع الأْجيال ويبني الأمم ، ويحافظ على دَيْمُومتها وبقائها ، واستمرار رقيّها وتحضُّرها .

ولا يَظُنَّنّ إنسانٌ أَنَّ هُناك توافقا معنويّاً بيْن قوْل الله تعالى عن أهل الجاهلية : ﴿ وإذا بُشّر أَحَدُهم بالأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وهو كظيم أَيُمْسِكُه على هُونٍ أم يَدُسّه في التراب ﴾[1] وبيْن قول الرسُول « ﷺ » : « مَنِ آبْتُلِي من هذه البنات بشيْء ... » ، استناداً إلى كلمة « آبْتُلِيَ » ... ، فهذا مُحال ... ، لأَن معنى الابتلاء هنا : الامتحانُ والاختبار ، على آعْتبار ما يتطلّبه موضوع تربية الأُنثى من جَهْد ونَصَب ، ولأَنه ذو قيمةٍ وأُهمّيَّةٍ بالغتيْن ، أَلسْتَ ترى قوْله « ﷺ » : « ... فَأَحْسَن إليْهنّ كُنَّ له ستْراً من النّار » ؟!! ستْراً من النّار!!! ، حِفْظاً من جهنّم ، مثوى الكافرين والمنافقين والظالمين ، ومهوى المتكبّرين والغافلين !!! .

إنّ تربية البنات بالإِحسان والإِتقان ، وعلى منهج الرحمن .... ، سبيل إلى الرضوان ووقاية من حُمم النِّيران .

ويقول (عليه الصلاة والسلام) في حديث آخر عن المرأة التي آثرت ابنتيْها بحبّة التمْر ، على نَفْسها : « إن الله قد أَوْجب لها بهما الجنّة ، أو أعتقها بهما من النّار .... » .

---

(١) النحل (٥٨ ، ٥٩) .

ويزيد النبي « ﷺ » في بيان الأجْر والثواب لِمن يُرَبى البنات ويُحْسن إلَيْهن ، فيقول :

« من **عال** جاريتَيْن **دَخَلْتُ أنا وهو الجنةَ كهاتيْن** ، وأشار بأصبعيه السبّابة والتي تليها » ؛ فأىُّ أَجْرٍ وثوابٍ أكبر من أن يُحشَر هذا المربّي مع رسُول الله. « ﷺ » في الدخول إلى الجنة بفارقٍ بسيط ، هو ما بَيْن الإصبع السبّابة والوُسْطى ؟!! .

وفي أَيِّ شَيْءٍ ؟ ...

في الإعالة أوّلاً ، ڤي الإنفاق والكسْوة والإطعام ، وفي التعليم والتوجيه ... ، في المقتضيات الضروريَّة من الرعاية الإنسانية .

ويُصور رسول الله « ﷺ » مُدّة الإعالة ... ، حتى بيْنونَتِهِنَّ ، بالدُّخول إلى بَيْتِ الزوجيَّة ، وبهذا تنتقل المسئولية ، أو يموت الرجُل عَنْهُنّ ، فتنتقل المسئولية أيْضاً إلى من يلي أمرهُنّ .

فليْستِ المدة ، أَشْهُراً أو سنواتٍ ، أو زماناً معيّناً مُحدّداً ، بل هي مطلقة ، لا تنتهي وتتوقف إلا بتغير الموقع الاجتماعي ، بالزواج .. ، أو بفراق العائل لهُنّ فراقاً أبديّاً .

ويرتفعُ الأَجْر ... ، ويعْظم الثّواب ... ، وتَتَبدّى الفضيلة إشراقاً وبهاءً وسطوعاً حتى تُسامت الجهاد في سبيل الله .. .

إن فضيلة التربية (مُكابَدَة) ، وكذلك (الجهاد) .... ..

وأيُّ جهاد !!! ؟ .

مع الصَّوْم ... ، ومع القيام .... ، مع الانقطاع عن شهْوتَيْ الفرج والبطْن ، وَلَغْو الكلام ، وطهارة المظهر والمخْبَر ؛ ومع التوجُّه الخالص إلى الله تعالى رُكوعاً وسجوداً .... وذِكْراً .

يقول (عليه الصلاة والسلام) : « ... ومن سعى على ثلاثِ بناتٍ فهو في الجنة ... » ، سَعْي الانفاق ، وسعى التربية النفسية والتوجيه الخُلقيّ والأدبيّ ، سعْي الزْوج والزوجة ، سعْي الأب والأمّ . وماذا يكون لهُما من مرتبةٍ في الجنّة !؟ القُرْب من رسول الله « ﷺ » ... ، ومنزلة المجاهد في سبيل الله ، القائم الصائم .

ويُبيِّن لنا الرسول الأكرم « ﷺ » بعد ذلك تَفْصيل المجْمل من السَّعْي والتربية ، والمقصود منهما ، فيقول : « ... فَأَحْسَنَ صُحبَتهُنَّ واتقى الله فيهنَ ... ، فأدَّبَهُنَّ وأَحْسَنَ إليهنَّ وزوَّجَهُنَّ فَلَهُ الجنّة » .

لقد علمنا من قَبل المنْزلة في الجنّة ، ونتعلَّم الآن أَبْواب و واجبات حُسْن العشرة ؛ فلا بُدّ من « حُسْن الصُّحْبة » .

نعم هُنّ بناتُه !! ولهُ عَلَيْهنّ الطاعة والاحترام ، ولكن إنما يتأتّى ذلك من خلال « حُسْن الصحبة » ؛ إذ أن رقّة الشعور وشِدّة الحساسية ولُطْف الأنوثة تَقْتضِي من الأب آختيار الأسلوب والعبارة والإشارة ، كي تتوافق مع طبيعتِهنَّ ... .

والأمّ أَوْلى لاتّحاد النّوْعيَّة ، فهي أكثر خِبْرة وأعظم تَجْربةً في بنات جِنْسها ، أَضِفْ إلى ذلك رابطة الأُمومة وما يتولّد عنها من حُبٍّ وعطف .

« وحُسْنُ الصحْبة » إنما يكونُ في مرحلة ما بعد البلوغ ، ويقوم على التّوادّ والصراحة ، والانفتاح الشعورى والنفسيّ المتبادل بيْن الطرفين .... .

وتَقْوى الله فيهِنَّ ... ، المبدأ الثاني في التّعامُل .... ، هي الميزان الذي يَضْبطُ به الأَبُ والأُمّ كفتى الحقوق والواجبات مع البنات ، من غَيْر إفراط في التَّزمُّت الجاهليّ الذي يهدّم الشخصيّة ويقضي عليها ، ومن غير تفريطٍ في الحدود الشّرْعية إلى حدّ الانفلات والانحراف .

وتتوضّح الصورة التى يَقصد إليها المصطفى « ﷺ » ، فيقول :

« ... فأدَّبهُنَّ ... وأحْسَنَ إلَيْهِنَّ ... وزوّجَهُنَّ ... » .

ف « التَّأديبُ » تركيزٌ للقواعد الخلقيّة المسلكيّة في الذات ، وتَعْليمٌ يتوازى ومتقتضيات الضرورة الحياتية والوظيفية الاجتماعية .

و « الإحْسان إليْهِنَّ » يكُونُ بالمساواة في الحقوق الأدبية والمادّية ، وبإعطائهن ما يَسْتَحققْنَ من النواحي الإنسانية ، في العلْم وحُرّيّةِ الاختيار ، وغير ذلك ؛ وكذلك العطف الذي يستلزِمُه ضَعْفُهُنّ الجنسيّ والنوْعي .

« وزوّجَهُنَّ ... » مِمَّنْ يكافئهنّ مركزاً اجتماعياً ، ويرعاهُنَّ خُلُقاً وديناً ، ويحافظ عَلَيْهِنّ محافظته على ذاته .

فكان العائل بهذا قد أَتَمَّ ما علْيه من (واجباتٍ) تجاه (البنات) ، (فاستحقّ) الجنّة !!! .

ويَعْرِض (عليه الصلاة والسلام) بعد هذا للأعراف (الجاهلية) وتقاليد (الضّلالة) ، لِينْزع من أعماق النَّفْس العربيَّة ، ما ألفتْهُ دهُوراً طوالا ، ولِيُكرِّس حق إنسانيّة الأُنْثى ، وعلى مستوى واحدٍ مع الذكر ، تصديقاً لناموس الله تعالى وقانونه : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفُسِكُم أزْواجاً** ﴾[1] .

فيقول : « مَنْ كانَتْ له أُنْثى فَلَمْ يئِدْها ... » تخلُّصاً من عارها تارة كما يزعمون ، أوْ خشية الفقر والإملاق تارة أُخرى ، فافْتأتوا على الله تعالى في حقّ الحياةِ الذي وهَبَهُ لها ، ويكفي تساؤله تعالى يوم القيامة ، في التّقْريع واللوْم ، ﴿ **وإذا الموءودة سُئلت بأى ذَنْبٍ قُتِلَتْ** ﴾ ، يكفي ذلك لإثارة مِسْكَةِ العَقْل عِنْد الجاني ... ، المجرم ... ، المتجاوز لحدود الله !!! .

وأيْضاً : « لم يُهِنْها ... » في إزْرائها ، وبَخْسِها حقُوقها ، وعَضْلها في البيْت لِلْخِدمة ، أو حِرْمانها من نَسْمةِ الحريّة والإنسانيّة ، وقهْرها في عواطفها ومشاعرها ... .

« وَلَمْ يُؤْثِر وَلَدَه » في تَفْضيل الذكور على الإناث ، فكأنّه يَرْفَعُ أُناساً ويخفض آخرين بمنطقه الجاهليّ الأعمى ، ويَضْرب بالقانون الإلهي عرْض الحائط ، ويَجْعله دَبْر أُذُنيْه وعينيه وعقْله .

إن المكابدة في (التربية) ... ، تربية البنات ، لما هُنَّ عليْه من كيْنونةٍ متميِّزة ، ورسالةٍ مستقبليّةٍ منتظرة ، ودَوْر أساسيٍّ ، ووظيفةٍ

---

(١) الروم (٢١) .

من أشَقّ الوظائف الحياتية ، هذه المكابدة تقتضي الصَّبْر ، وتستلْزم المصابرة ، وما يتفرَّع عنهما من لَأْواء وضرّاء وسرّاء ... ، فَمَنْ فَعَلَ ذلك من ذكرٍ أو أنثى ، من زوْج أو زوْجة ... ، من مُنطلق الرحمة والعطف والحنان ، أدْخلَهُ الله الجنة ثواباً طيّباً من عنده .

يقول (عليه الصلاة والسلام) :

« مَنْ كُنّ له ثلاث بناتٍ فَصَبَر على لأوائِهِنّ وضَرَّائِهِنَّ وسَرَّائِهِنَّ أَدْخله الله الجنّة بِرَحْمَتِهِ لهُنَّ » ... .

حتى ولو كانت واحدةً . .

وعلى هذا : فَنِعْم أَجْرُ العاملين ، المؤمنين الصادقين الطائعين !!! .

الفصل الرابع

الكيانُ الاجتماعيُّ المعاصر

لعلّنا إذا جعلنا دراستنا تتوجّه مبدئياً إلى عمليَّة تكوُّن الأُسرة ، والتي تشكِّل فيها (المرأة) المحوْر الأساسي ، تستطيعُ أَنْ نحدِّد بعدئذ الصورة العامة للكيان الاجتماعي المعاصر في أُمتنا الإسلامية ، في شتى ديارها ، ودُولها ، ذلك أن الأسْرة هي مجتمعُنا الصغير بُكلّ ملامحه وعلاقاته .

وتكوُّن الأُسرة ينطلق من مبدأ اختيار كل طَرَفٍ من الزوْجيْن لشريك حياته ؛ فكيْف يتمُّ ذلك ؟ .

قد يرى بعض الناس أنَّ الاختيار مقصُورٌ على الزوْج عُرْفاً وعادةً – وهو الظاهر – ، إلا أنّه عند التحقيق يظهر بُطلان تلك النظرة السطحيّة ، وهذه النظرة تدعو أصحابها والقائلين بها إلى تحميل إرادة الزوْج في الاختيار سُوء العاقبة والمنْقلب ، ومن ثَمّ تردّيه في البُعْد عن جادَّة الصراط ، وارتياد الصَّعْب من السُّبل ، والضرْب بالوصايا ، بل بالقواعد الدينية الأساسيّة في الاختيار ، عَرْض الحائط .

فالرجل حين يريد آختيار الزوجة (الصالحة) ... ، لا يلتفتُ مُطْلقاً إلى وصيَّة الرسول « ﷺ » في حديثه الشريف : « لا تَزَوَّجوا النّساء لِحُسْنِهِنّ فعسى حُسنُهنَّ أَنْ يُرْدِيَهُنَّ ، ولا تَزَوّجُوهُنَّ لِأَموالِهِنَّ فعسى أموالُهنَّ أن تُطْغِيَهُنَّ ، ولكن تَزوّجوهُنَّ على الدِّين ، ولَأَمةٌ خَرْماء سوْداء ذات دينٍ أفضَل » ...

وكذا المرأة في الواقع لا تهتمّ بخُلُق الزوْج الذي يعرض نفسه عليْها ، ولا تعتبر فضائله قدْر اهتمامها بوسامتِهِ واعتبارها لمالِهِ ، فمسئوليتها في الاختيار (المنحرف) الذي يجعل المال والجمال أساساً ، وما عداهما عبثاً ، قدْر مسئولية الرجل .

وأما قول الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) عن الأمة السوْداء الخرماء ، ذات الدّين ، بأنّها أفضل ، فهو ضَرْبٌ من الدِّقّة والتحري في الاختيار ، لا بأس مطلقاً ، ولا حَرَج أبداً ، في اجتماع المال أو الجمال مع الدِّين .... ، ولقد رُوي عنه « ﷺ » قوله في المرأة الصالحة : « هي التي **إن نَظَر إليْها سَرَّتْهُ** ، وإذا غاب عنها حفظتْه في مالِهِ وعِرْضه » .

أما أن يكون المالُ ، أو الجمالُ هو الأساس والقاعدة ، ويكونُ الخُلُق والدين شيئاً ثانويّاً عرضيّاً لا قيمة له ، فهذا هو التجنيّ والافتئات الاجتماعيّ ، ومن ثَمَّ التردّي .

---

(١) الخرماء : مثقوبة الأذن .

والبستان الغنيُّ بالفاكهة الناضجة ، والثمار اليانعة ، والأزاهير والورود إن لم يجعل صاحبه حوله سياجاً يحميه ويحرسه يكون عُرْضةً للسرقة من قِبَلِ اللصوص ، وحتى من الذين لم يعرفوا السّرقة والاختلاس مرةً في حياتهم .. .

فالنظرة إلى ذلك (الجمال) تبعث على الشهوة ، الشهوة تحرِّك الشّر وتنفث السُّم ، فيندفع الإنسان بلا وعْي إلى ارتكاب المحرَّم ، وليس لصاحب البستان بعد هذا حُجّة .... ، وقد لا يحتَجّ !!؟ .

إذاً .... ، فإن الأسس التي يقوم عليها الاختيار – اليوم – أسس واهية ، ومن العبث أن نقول إن الزوجيّة والأسرة في ترابُطها وبلوغها مراميها لا تسير من سيىءٍ إلى أسْوأ ، ومن الغباء أن نُغمض العينيْن ثم نقول : أيْن الفساد !!؟ وهو يطبّق دنيانا ويملأ مجتمعنا .

ولْنَسْأل أنفسنا : ما الذي يمنعنا من اختيار ذات الدين ؟ .

والجواب : أن التباين في الاختيار ، نتيجة التباين في الحاجة والدافع .

فمن الناس من يجعل الزواج وسيلةً للشهوة ، وقضاء الوطر ، ويُصِرُّ أن يكون الجمال شرطاً فيمن يقبلها زوجةً له .

ومنهم من يظن الحياة مالاً وغنى ، وثراءً واسعاً ، وسيارات فارهةً ، وقصوراً عامرة ، ليملأ بها أغْوار نفسه ، الخاوية الذليلة .

وعلى العموم ، فإن تلك مآرب دخيلة خسيسة ، لا يجوز منطقّياً ولا عقلانيّاً أن تكون دافعاً للزواج ، أو أن تدخُل في النيّة .

والإسلام – دين الخلُق – يوجبُ أن يكون الزواج مؤسساً على تطلُّب الصفات الكريمة ، والمعاني الجميلة السامية ، والخلُق الطيب ، لأن المرأة (إنسان) ؛ وأجمل ما في الإنسان إنسانيتُه ، وحقيقته المشرقة ، وصفاته المحبَّبة ، فإذا ما أُوتيت المرأة حظّها من (الجمال الحق) ، وراح الرجل يَنْشُد الجمال الظاهري ، أو المال ، أو نحوه ... ، كان ذلك سقوطاً في الهمّة ، وفساداً في النظر إلى حقائق الحياة ، وإنما تستقيم لنا الحياة وتسعد إذا نحن أجريْناها على حقائقها السليمة ، ولم نحملها على غير ما سنّ الله ورسوله لنا .

ولقد كان لنا في رسول الله « ﷺ » – ولا يزال – أسوةٌ حسنة ، فقد تزوَّج (عليه الصلاة والسلام) من « خديجة بنت خُوَيْلد » – رضي الله عنها – وهي في سنٍ متقدّمة على سِنّه ، لكنه كان زواجاً موفّقاً ، سعيداً ؛ لأنه كان زواج عقْلٍ راجح إلى عقل راجح ، وخُلُق كريم إلى خلق كريم ، كان كل من الزوجيْن يعيش في حقيقة نفسه ونور فطرته ، فأُحبّ في الآخر رجاحَة العقل وسُمُوَّ الخُلُق ، ولم يكُن لشباب البدن وجمال الصورة أي تقدير ، ولذا عاش رسول الله « ﷺ » يهشّ لذكراها ويحنّ لعهدها ، ويكرم كُلّ من كان يعرف من أترابها .

إذاً .... ، ما الذي يمْنَعُنا – اليوْم – ، على الأكثر الأرجح ، من آختيار ذات الدين ؟؟ .

السبب هُو انعدام الدافع إليْها ، وتحوّله عن حقيقة الحياة إلى زخرفها وزينتها ، وتعلّق النفوس بالمظهر دون المخبر ، وأيْضاً لِنذْرتها هي ... !! .

فالذي يُقدم على الزواج ، يهمه أوّل ما يهمّه أن تتمتّع خطيبتُه بحظٍّ وافرٍ من جمال الخلْقة ، وهذا رأس الأمر عنده ، وغاية الغايات ، أضف إلى ذلك – إن اهتمَّ بعد الجمال بشيءٍ – أن تكون من مُستواه حسباً ونسباً – وهذا ما يؤكد عليه أهلُه وذووه – فإن لم تكن في مستواه ، واصطرع الجمال مع النَّسب ، كان الجمال عنده هو المقياس المفضّل ، ولوْ أدى الأمر – أحياناً – إلى نزاعٍ عائلي ، ويرضَخ بعد ذلك أهله (للواقع) .

ويأتي المال أو الغنى – في بعض الأحيان – في الدرجة الثالثة من الاهتمام ، وقد يكون الأمْر نسبيّاً متفاوتاً ، فهو – أي المال – عند البعض في المقام الأوّل ، والنسب عند البعض الآخر .... ، وكذلك شأن الجمال .

إلا أن الحظ الأوفر للجمال ، على وجْه العموم ؛ وغاية ما نريد تحقيقه أن التديُّن والخُلُق لا يردانِ مُطْلقاً على ذهْن الخاطب لدى شروعه في الزواج .

قد يعترض البعض فيقولون :

إن فترة الخطوبة ، من معاشرةٍ وحديثٍ وزيارات .... ، كُل ذلك سبيل إلى اختيار الخلُق ، وامتحان (النفس) ، واكتشاف مدى

صلاحية الطرف الثاني للحياة الزوجيّة ، فكيْف يجوز لكم نَفْي الاهتمام بالْخُلُق كعنْصر أساسي في اختيار الزوجة الصالحة ؟؟ .

والواقع الذي لا مراء فيه أن ما يُسمي بـ (فترة الخطوبة) ليست اختباراً على الحقيقة ، بل لهْواً ... ، ومداعبة ... ، كقُبلةٍ خاطفةٍ بعيدةٍ عن أعْين (الرقابة) ، أو ضمَّةٍ خانقة .... ، أو لمسة بارعة ... ، فالأيدى المتشابكة في الطريق إنما تتشابك شهوةً لا حناناً ، وفي كُلّ مكان ... .

وقد سبق لى أن قُلْتُ :إن القبلة قد تكُون خاطفة بعيدةً عن أعْيُن (الرقابة) ، والحقيقة أنها تحصل في أيامنا بتغاضي الرقابة ، وبحضورها في بعض الأحيان – لدى بعض الطبقات الاجتماعية – ، بل وبتشجيع منها ، وحينئذٍ لا تُسمّى (رقابة) ، بل تُسَمّى (.....) !! .

بالله عليْكم ... أيْن الاختبار في كُلّ هذا ؟ أم هُو اختبار لمدى طواعية الفتاة للاحتراق السريع أو البطيء ؟ كم من تفاوتٍ في النظرة إلى الأشياء والحقائق تحدث بيْن الخطيبيْن ؟!! ، إلا أنهما في لهْوهما وعبثهما ، وشهوة الجنس الجامحة ، يتناسيان ما حدث ، حتى يتضخّم ويشتد ، ويكبر التفاوت ، ثم يُصْبح خلافاً مدمّراً للحياة الزوجيّة ، لا يقضي على الزوجيْن فقط ... بل على الأسرة كلها ، وهنا الطامة الكبرى .

إذاً ، لم تكن فترة الخطوبة اختباراً بمعناه الحق وضرورته الحياتية المنطقية ، بل كانت لهْواً ، ولعباً ، وتعامياً عن متطلباتها الحقة .

وليس تأكيد الإسلام على ذات الخُلق والدين أن يتزوجَّ المرء بمن لا تقع من نفسه موقع الرضى ، إنما معناه ، أن ينصب لنفسه أهدافاً عُلْيا للزواج هي : (التناسل) ليعمر الكوْن ، و(الإحصان) ليحمي نفسه مغبّة الفساد ، و (السكن) الفطري ، لتتوثق روابط العائلة ، ويشير إلى ذلك قول الله تعالى : ﴿ **وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَق لكُم من أنْفُسِكُم أزْواجاً لِتسْكُنُوا إليها وجعل بيْنكم مودَّةً وَرَحْمة** ﴾[1] .

فَنُشْدان الخُلق والدين بداهةً وأوّلاً ...

ولا بأس أن يطلب المرء من مخطوبته خلوّها من العيوب لتقع من نفسه موقع الرضى والقبول ، ولقد روى « البخارى » و « مسلم » وغيرهما : [أن « المغيرة بن شعبة » خطب امرأةً « فقال له النبى « ﷺ » : « أنظُر إليْها ... ، فإنه أحرى أن يُؤدم بيْنكما »] ؛ أي تحصل الموافقة والملاءمة ، والانسجام المطلوب لكل حياةٍ زوجيّةٍ سعيدة .

مع العلم بأن الرسول « ﷺ » لم يحدِّد لـ « المغيرة بن شعبة » القدْر الذي يراهُ من مخطوبته ، بل أطلق له ذلك في حدود ما يسيغه العُرف والبيئة .

---

(١) الروم : (٢١) .

ومن المعلوم أيْضاً أن الشريعة لا تجيز للرجُل أن ينظر من الأجنبيّة إلا وجْهها وكفّيْها ، ولكن للخطبة ظروفاً استثنائية ، لذا قال (عليه الصلاة والسلام) : « إذا خَطَبَ أَحَدُكم المرأة فَقَدر أن يَنْظر منها **بعض** ما يدعوه إلى زواجها فلْيفعل » .

فللْخاطب – في عصرنا – أن يراها في ملابسها التي تظهر فيها لأبيها وأخيها ومحارمها بلا حَرَج ، وأن يصحبها – بزيّها الشرعيّ – إلى ما اعتادت أن تذهب إليه من الزيارات والأماكن المباحة ، لينظر (عقْلها) و (ذوْقها) و (ملامح شخصيّتها) فإن ذلك داخلٌ في مفهوم البعضيّة) التي وردتْ في الحديث الشريف .

ومما يدعو إلى الأسف أن من المسلمين من تزمَّت فرفض سُنّة رسول الله « ﷺ » فلم يُبِحْ للخاطب حتى مُجرّد الرؤية ... ، ومنهم من أباح بيْته وعِرْضه ، فخلا الخاطب بخطيبته ، وقد يخرج معها دون محرمٍ بلا قَيْد ولا شَرْط .

ومن البديهيّات التى تقرّها الشريعة الغَرّاء (حُرّيّة) المرأة في اختيار زوْجها .

قال رسول الله « ﷺ » : « لا تُزَوَّج الأيِّم[1] حتى **تُسْتَأْمر** ، ولا البكْر حتى **تُسْتأْذن** » .

وَرَوَتْ « عائشة » عن النبي « ﷺ » قوله : « البكْر تُسْتأذن ، قُلْتُ : إن البكْر تُستأْذنُ وتَسْتحي !!؟ قال : إذْنُها صِماتُها » .

---

(١) الأيِّم : من لازوج لها بكرا أو ثيبا ، وفى مقابلة البكر يراد بها الثيب .

فإذا زُوّجت الأيِّم دون أن تُستأمر فالعقْد باطل ، وإذا زُوّجت البكْر دون أن تُستَأْذن فهي بالخيار ، إن شاءت أَمْضَتِ العقْد ، وإن شاءَتْ أبْطلتْهُ .

جاءَتْ فتاةٌ إلى رسول الله « ﷺ » فقالت :

« إن أبي زوَّجْني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته ... ، فجعل النبيُّ « ﷺ » الأمْر لها ، فقالت : لقد أَجَزْتُ ما صنع أبي ، ولكن أردْتُ أن أُعلم النساء أن ليس للآباء من الأمْر شيء » .

وهذا ، أسمى ما نالت المرأة من (الحرية) والكرامة والاعتراف بشخصيّتها و (حقّها) في قبول أَوْ ردّ أي خاطب .

إن كل **حُريّة** تقابلها **مسئولية** ...

إذاً ... فحريَّة اختيار الزوْج تقابلها مسئولية (**حسْن الاختيار**) ، **وتحمّل** هذه **المسئولية** ، وما **يعقبها** ، **وما يترتَّب** عليها .

ودفعاً لكل التباسٍ ووهم ، أحببت أن أعرض **حرّيّة** المرأة في الاختيار حتى لا أُحمّل الرجل وحده **مسئولية** ضياع الأصلح والقاعدة ، **فكلاهما مسؤول عن توجيه تلك الحرية وِجْهة – معاصرةً – أسَفَّتْ بقيمة الاجتماع بينهما وربْطهما برباطٍ من الأدب والدين والخلُق .**

فالفتاة حين يتقدم لخطبتها شاب ، وهي مالكة لحرية الاختيار طبيعيّاً ، تنشد أول ما تنشد – في عصرنا – الثّراء ... ، وكذا وليُّ أمرها ، والأسئلة التي تدور عادةً :

كم يملك ؟ ما هو رأس ماله ؟ هل يملك سيارة ؟ هل يملك مسكناً ؟ هل هو ـمُسْرف – وفي العرف (كريم) ؟

وبذا يخرج أمر الزواج و (**الاجتماع**) من **التقعيد** ، إلى **الوثنيّة** التي يُعبد فيها المال والجاه والمنصب ، وهو من سُوء فهم الناس لحقائق الاشْياء وقيَم الحياة ، فليست البنْت (**سلعة**) ، ولا عقد الزواج (**صفقة**) تجارية ، إنما هو اقتران صفاتٍ بصفاتٍ ، ولقد قال رسول الله « ﷺ » : « إذا أتاكم مَنْ تَرْضَوْن دينَهُ وخُلُقه فأنكحوه ، إلّا تَفعَلُوا تكُنْ فتنة في الأرض وفسادٌ كبير » .

وهل من فتنةٍ أعظم وأخْطر مما يُعانيه مُجْتمعُنا المعاصر !!! ؟

وهل من فسادٍ أشَدّ وأفدحُ مما نَحْنُ عليه !!! ؟ .

ذلك هو نظر الإسلام إلى حقائق الأُمور ، وهو نظر يجعل كفاءة المرء منوطة بكمال خلقِهِ ودينه ، لا بمالِهِ .... ومنصبه .... ، ومؤلده ، وفي ذلك يقول سبحانه :

﴿ **إنّ أكرمكُم عند الله أتْقاكُم** ﴾[1] .

فكفاءة الدين والخُلق هي المرجّح الأول لقبول الخاطب ، أما كفاءة الوسط الاجتماعي التي تتحدّد بالمال والمنْصب والنسب فلا يصح بحالٍ من الأحوال أن تقدّم على ميزة الدين والخُلق ، فإنه يكون حينئذٍ تغليباً للاعتبارات الوثنيّة على اعتبارات المثُل العُليا ، وهو

---

(١) الحجرات (١٣) .

من الفتنة والفساد الكبير الذي أشار إليه حديث رسول الله « ﷺ » .

ونُشْدان الثراء في الخاطب لا تَخْفى الغاية منه ، فالفتاةُ في هذا إنّما ترغب فيمن يضْمن لها الحُليّ الفاخرة ، والأثواب الباهظة الثمن والتكاليف ، والأثاث .... والرياش ... والسيارة وإلى آخر ما هُنالك من (**فراغ**) و (**زينة**) ولا يُضيرها بعد ذلك خُلُق الزوْج ودينه ، لا يضيرها مطلقاً إن كان لا يراعي حرمة الدين طالما أنها (**ترتع وتلْهو**) ، لا يَضيرهُا إذا كان سكيراً .... ، مقامراً ... ، أو مُخَاتِلاً مخادعاً للحياة الزوْجية والأمانة الاجتماعية .

وقد تعرض (**الفارغة**) لرأْس مال الخاطب كُلّه عند الزواج فلا بأس أن يؤمّن لها ما ترغب فيه ولو استهلكتْ ما ادَّخره في نضاله مع الحياة ، ومكابدته لها ، وتتربّع هي على عرْش خاوٍ **تعصف به مرّةً واحدة ريح المنازعات** التى لا غنى عنها .

والإسلام الحنيف ، هو الذي أمر بيُسْر التكاليف وعدم المغالاة في المهور ، لأنّه قائم في أساسه على عدم الحرج ، قال تعالى : ﴿ **وما جعل عليكُم في الدين من حَرَج** ﴾[1] ، ورُوي عن رسول الله « ﷺ » قوله : « إنّ أعْظَمَ النكاح بركةً أيْسره مؤونةً » ، وقوله : « خيْر الصداق أيْسره » .

---

(١) الحج (٧٨) .

حقيقة لا مراء فيها : أن العلماء أجمعوا على أن المهْر لا حدَّ له ، ولكن البركة في يُسْر المؤونة كما يصوّرها النبيُّ « ﷺ » بقوله : « لو أن رجُلاً أعطى امرأة صداقاً ملء يديه طعاماً كانت حلالاً له » .

و « عمر » – رضي الله عنه – يقول : « لا تغْلوا صدُق النساء فإنها لو كانتْ مكْرُمةً في الدنيا أو تقْوى في الآخرة لكان أوْلاكُم بها النبيُّ « ﷺ » » .

واليُسْر في الصداق أمْر اعتباريّ بتبايُن ما عند الأفراد من إمكانات ، فقد يُنْفق أحد الناس مَبْلغاً ما بسهولةٍ كبيرة ، هو عند الآخرين شيء عسير لا يطيقونه ، وهنا يجْدر بنا أن نعرض لصورةٍ من الصُّوَر الجميلة (الواقعيّة) لا (الخياليّة) في حياة المسلمين الأوائل الذين فقهوا المعاني والمُثل فآمنوا بها ونهجوها ، وهي من الصُّوَرِ التي تشرّف تاريخ الإسلام والانسانية ، وتعلّم (تلامذة) العصْر قيَم الحياة الحقّة .

روى « أبو نعيم » في (الحلية) قال :

[خطب « أبو طلحة » « أمَّ سُلَيْم » قبل أن يُسْلم ، فقالت : أما اني فيك لراغبة ، وما مثْلك يُرَدّ .... ، ولكنك رجُل كافر ، وأنا امرأة مسلمة لا يصحُّ لِي أن أتزوّجك .

فقال : ماذا دهاك يا رُمَيْصاء ؟!! .

قالت : وماذا دهاني !! .

قال : أيْن أنت من الصفْراء والبيضاء ؟ (يعنى الذهب والفضة) .

قالت : لا أريد صفْراء ولا بيْضاء ، فأنت امرؤ يعبد ما لا يَسْمع .... ولا يُبصر ولا يغنى عنك شيئاً !!! أما تستحي أن تعبُد خشبة من الأرض نَجرها لك حبشيّ بنى فلان !!؟ إن أسلمْت فذلك مهْرى ، لا أريد من الصداق غيره .

قال : ومَنْ لي بالإسلام يا رُميْضاء ؟ .

قالت : لك بذلك رسُول الله « ﷺ » .... ، فاْذهبْ إليه .

فانطلق « أبو طلحة » يريد النبيَّ « ﷺ » وكان جالساً في أصحابه ، فلما رآه قال : « جاءكم « أبو طلحة » ، غُرَّةُ الإسلام بيْن عينيْه » .

وأسلم « أبو طلحة » أمام النبى « ﷺ » وأخبره بما قالت الرميْصاء ، فزوّجَهُ إياها على ما شرطت] .

وبعد ....

فإذا ما كان الاخْتيار بيْن الطرفيْن يتمُّ أكثره وفق هذه المقاييس الوثنية ، بعيداً جدّاً عن روح العقيدة وأصول الشرع الحنيف ، في الواقع المعاصر ، كان من المحتَّم والطبيعيّ أن يتأكّد الخلل في أسِّ البناءِ ، وتضطرب أصوله وقواعدُه على الدوام عند أقلِّ هزّةٍ .. .

والواقع الذي لا مراء فيه ولا جدال أن الكيان الاجتماعي المعاصر لمعظم قطاعات العالم العربىّ والإسلاميّ لا يتّسم من حيث الصورة

البارزة بأدنى مَعْلمٍ من معالم المجتمع المسلم ، حتى ولا تَحْمِلُ في مضامينها الخلفيّة بُذُور ونوايا الإصلاح ... ، اللهُمَّ إلا عناصر فرديَّة أَوْ جماعية (تحاول) أن تستعيد بالأُمّةِ ما سَلَفَ من قيادة البشريّة والإنسانيَّة على هدى الله ، متّخذةً شعارها ودثارها ، قَوْل الله تعالى :
﴿ **إن هذا القرآن يهدى لِلتى هي أَقْوَم** ﴾ .

ولا أعتقدنى بحاجة إلى التوسُّع في إلقاء الأضواء على كُلِّ جُزئية من هيكليّة الكيان الاجتماعي ، إذ إن القاعدة الأساسيّة في قيامته ، وهي (الأسْرة) ... ، تَكْفي في الإنباء عن هُزالِهِ !!! .

الْخَلَلُ ... وَالمرْأة

مع أهمِّية الدَّوْر ، والوظيفة الطبيعيّة التي خُصَّتْ بها المرْأة ، تعظُم التّبعةُ والمسئوليّة ، ويتعاظم الواجب .

وحيثُ إننا قد ركّزْنا على (**الذور المحورى**) لدى المرأة في حدود الأُسرة فإننا نُحمِّلُها قِسْطها من أَسْباب المعاناة المعاصرة ، القسْط الأكبر .... .

ونحن في هذا لا نَتَجَنَّى أو نظلم ، أو نعْدل عن الصراط السويِّ في تَوْزيع نِسَب المسئولية ... ، يكفي أنْ نذكر بأن (**الزوْجة**) بالإضافة إلى هذا المقام ، وبالإضافة إلى مقام (**الأمُومة**) ... ، تتبوَّأ تلقائياً وطبيعيّاً مقام (المربِّية) .

فهي تقوم كزوجةٍ بواجباتها الحياتيّة والمعيشيَّة نحو الزوْج ، وكذلك النفسيّة والرعائية وغيرها ، وبالمقابل فإنّ لها حقوقاً أدبيَّة ومادّية ، يؤديها هُوَ من غَيْر مَنٍّ ولا تَفضُّل ، وعليه ... تقومُ الشركة بيْن الطرفيْن على أُسُسٍ واضحة مُنْصفة .

وتقومُ كأُمّ بالحمْل والولادة والإرضاع ، وكُلّ تَدْبيرٍ تفترضُه وظيفةُ الأُمومة .

ثم الأهمُّ من هذا كُلّه عمليَّةُ الترْبية ... ، إذْ لا يكفي في مَعْنى الأُسرة : التزاوج والتَّفريخ والإخصاب ! . فلا بُدَّ من إدْراك الماهيَّة الأساسيَّة لكيْنُونة الأُسْرة في البناء الاجتماعيّ الصّالح .

وهنا يتبدّى دوْر المربّية .... (الأم والزوجة) ؛ وليس الحاضنة المستأجرة ؛ على النطاق الفرديّ في البيْت سواءً كانت الأمّ عاملةً أو غير عاملة ، أو على النطاق العام في دور الحضانة كما نشاهد ونرى .

ونلاحظ أنّ طبقةً معيَّنةً من المجتمع اليوم هي التي تتّبع ذلك ، وأن هذه الطبقة بالإضافة إلى قُدْرتها المالية على تأمينه يتوفّر أيضاً فى الأب أو الأُم ، أو كليْهما ، مستوىً عالٍ من العلْم !!؟ .

ونُحبُّ أن نتوسَّع قليلاً ...

والسَّبب أن هُناك كثيراً من الشُّبهاتِ الأُنثويّة تَدُور حوْل وظائف : الزوجة والأم ، والمربِّية ، (ظنّاً) بأَنَّهُنَّ مُسخَّرات في هذا الصَّدد .

نتوسّع لإزالة الشُّبهات ، والوهْم الخادع ، ولنَنْتَهي من ثم إلى مقام المرأة في القداسة والمحوريّة والأهمّية العظمى في حياة الأُسرة والمجتمع والأُم على مدى التاريخ الإنسانيّ الطويل .

« جاءَ « عليّ » - رضي الله عنه وكَرَّم وجْهه - ومعه « فاطمة » - عليهما السلام - إلى رسول الله « ﷺ » يشتكيان إليه ما يلقيان من عناءِ العمل ... ، فجعل العمل بينهما قِسْمةً : (فاطمة) لعمل البيت ، و (عليٌّ) لعمل الخارج ... » .

هذا الحكم في توزيع المسئولية ، هو حكم الفطرة وقضاء الطّبيعة ، طبيعة الأشياء والموجودات والمخلوقات - فقد تولّت الفطرة ، منذ الأزل ، تقسيم العمل بيْن الزوْج والزوجة تقسيماً

لا ظُلم فيه ولا طغيان ، إذ إن المرأة من حيث التركيب العضوي هي المعدَّة لأن تحمل الجنين في بطنها تسعة أشهر .... ، ثم ترضعه ... وتقوم على العناية به ورعايته ، (هل في ذلك شك ... ؟!) وهل للمرأة من هذا فكاك وانطلاق ؟! كي تتقاسم مع الرجل أعْباء الحياة ؛ عِلْماً بأنها في تلك المراحل تتعرض للضعْف والوهن والسّقم ، فلا تكون قادرة - بدنيّاً - إلّا على اليسير من العمل .

ثُم ... ، هل أُعدَّ الرجل (الذكر) عُضْوياً لمثل هذا النَّوْع من وظيفة الحياة ؟! أم أنّه أُعفي مِنْه ؟ فلا يكون مُعرَّضاً للمرض والألم حيث أعمالُهُ في وظيفته الحياتية تتطلّب الجهْد الكبير ، والبدَنَ القويّ المعافي !!! .

لقاءَ هذا التنوُّع الفطْرى والتقسيم الطبيعيّ لتَحمُّل أعباء الحياة بيْن الرجل والمرأة نستطيع القوْل بأن المرأة في قيامها بواجباتها الحياتية ليستْ (خادماً) ذلولاً مسخَّراً لِخدْمة الرجُل - وهذه أُولى الشبُهات - ، وكذلك الرجل في قيامه بتكاليف المعاش والسعْي لها خارج البيْت ، ولكنهما - وهُما من نعْلم في بقاء النوع الإنساني البشري - يتعاونان على أداء رسالة الحياة ، ويؤدي كُل منهما (دَوره) الذي أهلتْه له فِطرةُ تكوينه وخلْقِه .

ولقد أَعْفتِ الشريعة المرأة من الإنفاق على نَفْسها وجعلتْ ذلك واجباً على الرَّجُل ، وهذا منتهى العدْل .. ، إذ إنه لا يجوز مطلقاً في منطق العدالة أن تحمل المرأة وتضع وترعى ، دون أن يقوم الرجل من ناحيته بما يقابل ذلك من جلب القوت وتوفير النفقة .

وإذا لم يكن أحدهما مسخّراً للآخر ، كان من التجنّي - العصري - أن يُقال بأن المرأة في قيامها بأعْباء البيْت ليستْ إلا (رقيقاً) يمتلكه الرجُل بمالٍ (أي بالمهر والصداق) يدفعه ، ثم يَسْتحْوذ على هذا (الإنسان) فتكون مزرعةً لِنُطْفته ، وقضاء شَهْوته (كأن المرأة ليستْ ذات شهوة !!؟) ومربّيةً لأولاده وخادماً ذلولاً لِبَيْته .

وهذا التَجنّي يُقابله تَجنٌّ آخر ، وهو أن الرجل في سعْيه - بدنيّاً أو فكرياً - في سبيل الرزْق والعيْش إنما هُو (مُسخّر) أيضاً !! ، لا ينالُ مما يحصّله بكدِّه إلّا جُزْءاً معيّناً ، يزيد أو ينقُص بحسب عدد أفراد الأسرة ، ليُنْفق على نفسه .

وتسميتنا لِهذه الشُّبهات (افتراءً وتجنّياً) سببه أن عاملى الحق والواجب غير باديْين ، فلم يظهر سوى عامل الأنانية والفردية .

فالرجل حين يدفع مالاً (مهْراً) للزوْجة ، لا يدفع (**ثمناً**) ولكنّه يُعطيها (**حقّاً**) ، وهنا فرق كبير بيْن المعنييْن ، وهذه شبهة أوقعتْ - بعض المثقفين ، بل أكثرهم فَضْلاً عن العامة - في مأزِقٍ حَرِج ففهموا من (حق المرأة) : (ثمنها) ... وهذه مغالطة ، إذ إن الرجُل بدَفْعه المال لا يمتلك ، ولكنه يُعطى حقّاً .

ولماذا تسمى هذه الشركة (آستحْواذاً) مع أن لكُلٍ منهما حقوقه وواجباته ، ولماذا تُسمّى المرأة مزرعةً لنُطفتِهِ وقضاءً لِشَهْوتِهِ ، مع أنه لا خَيْريّة ولا تفاضل بيْن الماء والتربة والشمس في حاجة الزرع إلى كل منها ، ولا غنى له عن أحدها ، فالْخِصْبُ إنما يتأتى بها جميعاً ،

وكما أن شهْوة الرجل تنقضي بالجماع ، كذلك المرأة .

ولماذا تسمى المرأة (مربِّيةً) لأولاده ... ؟ .

إنّ الأطفال أبْناؤها .... وفلذات كبدها ، وحبات قَلْبها ... ، في كُلّ لُقْمةٍ شاركوها وفي كل غذاءٍ قاسموها ، ومع كُلّ هجعةٍ رقدوا معها .... ، في كيانها عاشوا ، ومن فيْض حنانها آسْتقوا .

وبسبب هذا (التقارب) بين الأم والأبناء[1] كانت عاطفتها أشدّ ، ورعايتها أكبر ، وعنايتها أعظم ؛ ونستطيع القوْل : نِعْمتْ تَسميةُ (الزوجة – الأمّ) بـ (المربّية) .

وهنا بَيْتُ القصيد !! ومَكْمن الداء !!! .

فعبثاً نُحاوِل البناء الاجتماعي السليم ، وجسم الأُمة القويم ، إنْ نَحْنُ لم نَسْعَ إلى إيجاد الزوجة الصالحة . والأم الناصحة ، والمربّية الفاضلة !! ولسوْف تستمر عمليَّة التقهقُر والتدهْور ، ولن يتم لمجتمعنا النهوض من كبْوتِهِ إلا إذا أخذنا بناتنا – أمّهات المستقْبل – بفضائل التربية الإسلامية ، وقواعدها المتينة ومقاييسها الضابطة .

[أعْطونا أمّاً مُسْلمة ، وخذوا مجتمعاً مسلماً] .

---

(١) يُرجى العوْدة إلى كتابنا : (أولادنا فى ضوء التربية الإسلامية) نشر وتوزيع مكتبة القرآن – القاهرة .

التربيةُ بيْن التَّزمُّتِ والانْفِلات !!

عجباً لِأَمْر المسلمين ، و أيُّ عجب !!! .

لقد اختارهم الله تعالى أُمّةً وَسَطا ﴿ **وكذلك جعلْناكُم أُمةً وسَطًا ... الآية** ﴾[1] .

فَظَنَّ أَكْثَرهُمُ أن (الوسطيَّةَ) المقصودة تهافت وضَعْف ، وليست دليل صِحةٍ وعافيةٍ في الأُمَم ، أَوْ في الأفْراد ، وجمحتْ في بَعْضهم قاعِدَةُ (قيادةِ البشريّة) عن مضمونها الصحيح ومفهومها السليم ، فظنّوها تَخَطياً لِلْوَسطيّة ، بالضرورة ... .

إن (متوسِّط) قضيب الميزان – مَثَلاً – هو (مرتكز) العدالة ، فإن تأرجحت الكفّتان ، عُلُوّا وهُبُوطاً ، فقد الاعْتدالُ معناه ، ولم يعُدْ للوسطيّة أدنى قيمة .... ولا للاتّزان أيْضاً .

فالعدْل الأزليُّ الذي قامتْ به السماوات والأرض ومن فيهنّ يرتكزُ إلى التوسُّط من غير جموحٍ ولا اهتزازٍ ولا تأرْجُح ...

أَفَلا ترى في مِحْوريَّة الأرْض في (وسَطها) ودورانها حَوْل نفسها وارتكازها على هذا المحْور ، آيةً من آيات الاعتدال والانْضباط !؟ .

---

(١) البقرة (١٤٣) .

ويُقال – مثلاً – عن إنسانٍ في إمكاناتِهِ وظروفه الماديّة ، دخْلاً وخَرْجاً ، إنَّه (متوسِّط) الحال ، فيرى بعض الناس في ذلك (مسْكنةً) و (مكابدة) .... عِلْما بأن (التوسُّط) هُنا وقايةٌ من سُوء طُغْيان الْغِنى بالنسبة للأكثرية الساحقة من بني آدم : ﴿ **كلّا إنّ الإنسان ليطْغى أنْ رآهُ استغْنى** ﴾[1] ؛ وحِفْظاً من زلزلة الفقْر لعقيدة المرء وإيمانِهِ : [كاد الفقر أن يكون كُفْرا ...] ؛ وهذه الوقاية والحفظ – على الأرْجح – تعدِّل السُّلوك ، وتَضْبطه عن الخلل .

هذا مدخلٌ لا بُدَّ منه ، لأَن قاعدة (التوسُّط) في المخلوقات الكونية والكائنات الحيَّة ، التي تعني الاستواء والعدْل تَتَغَلْغَل في أعماق كُلِّ موجود وتحْكُم حركته السليمة إلى غايتها ، فإن أغْفلت تحت ضغْط عاملٍ من عوامل الزّيْغ والهوى ، اختلَّتْ وتاهتْ عن هدفها وضلَّت عن غايتها .

والتربية التى تُعْتبر من المهمات الأساسية في الحياة ، لأنّها (مادة) صياغةِ الإنسان وإعداده لمواجهة التطورات والظروف والأحداث ، واتخاذ الموقف المناسب منها ، هذه (التَّربية) تقتضي (التوسُّط) و (الاعتدال) كيْ يستقيم الميزان ... .

وأشدّ ضروراتها أثراً وأعظمها خطراً ، في البنات ، لأنهنّ (آلة) الإنتاج ومصنع الأفْراد ، وكُلّما كانت (الآلة) دقيقة مُحكمة أفرزتْ صناعةً جيِّدة منها الكفاءَة والمؤهّلات .

---

(١) العلق (٦) .

ولا نرى بأساً من هذا القياس ، ولو أنّ هناك الفوارق .

يقول رسولنا الأكرم « ﷺ » : « إن هذا الدين متين فأوْغِلُوا فيه برفق »[1] .

ويقول : « ولن يُشادَّ الدينَ إلا غلبه » .

وقبل ذلك كُلّه وبعده قوْل العليِّ الأعلى سُبْحانه : ﴿ **يا أيُّها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكُم** ﴾[2] .

فمنطق الآية الكريمة والأحاديث الشريفة تهذِهدُ في الإنسان المؤمن غُلواء التشدُّد والتزمُّت ، وكل ما من شأنِهِ تقْييد الحركة أو شلها عن التفاعُل ، أوْ جموحها السلبي القاتل .

وبالمقابل تضبطُ إيجابيّته بحدود الالتزام المعقول فلا يُفرِّط ، ثم يقْعد ملوماً مَحْسورا : ﴿ **ولا تَجْعل يدك مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تبسطْها كُلّ البسْط فتَقْعُدَ ملوماً مَحْسُورا** ﴾[3] .

والتربية السليمة الناجحة تَضَعُ الموازين بالقسْط – التى أمر الله تعالى بها وجعلها أسَّ الوجود كُلّه – لتستقيم الحركةُ ويعتدل الحكم وتتّزن المسيرة .

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى المجلد السابع . رواه أحمد بن حنبل .

(٢) المائدة – ١٠١ .

(٣) الإسراء – ٢٩ .

ونحن من خلال الاستقراء التاريخي للواقع الاجتماعي الإسلامي ، في حقب بعيدة وقريبة ، نرى أن الفتاة المسلمة راوحتْ بين التطرُّف سلْباً وإيجاباً ، من الناحية التربوية بحكْم العوامل والظروف فأنتجت أجيالاً هوَتْ بالكيان العام للأمة من كُلّ النواحي ، كما (اعتدلتْ) أحياناً ، وِفْق القواعد الإسلامية فافرزتْ استقراراً وانبعاثاً واستواءً في المركز القيادي المطلوب ﴿ **لتكونوا شُهداء على النّاس** ﴾[1] .

إن الدَّوْر الذي لعبتْه (المرأة) كزوْجةٍ وأمّ ومرِّبية في الحياة الأندلسيَّة ، خصوصاً أولئك اللواتي كُنّ من غَيْر العرب أو المسلمات ، أو كُنّ مولدات ، فلم يستَقين في تكوين عقيدتِهنَّ ولا أخلاقِهنَّ من النّبْع المحمديّ الصافي أثّرْن تأثيراً مدمِّراً وهائلاً في المجتمع ، إن على مستوى الأفراد العاديين ، أو على مستوى القيادة ، مما أدّى إلى الكارثة الرهيبة ، وضياع الفردوْس المفقود ؟!! وقِسْ على هذا مختلف العُصُور والأدْوار والأحوال .

ولعلّ القاعدة المنطقية في القياس ، التي تقول بأن لكلّ فِعْل ردّةُ فِعْل تنطبق بتمامها على التّزمُّت في مُقابل الانْفلات ... .

إذ أتى على المجتمع الإسلاميّ حينٌ مِن الدَّهْر تَشَدَّد فيه الناسُ تَشدُّداً خطيراً خَرَج بهم عن أوّليات الحقُوق الإنسانيّةِ بالنسبة إلى المرأة ، وحرموها مِنْها ، توهُّماً مِنْهم وجَهْلاً ... ، كالتعليم مَثَلاً ، والإكراه على الزواج من شخْصٍ معيَّن وغير ذلك ... ؟!! .

---

(١) البقرة (١٤٣) بعض الآية .

ومن الغريب العَجيب في حياةِ المسلمين المعاصرة أن هذه المفاهيم الخاطئة المغلوطة لا تزال تَستجرُّ ذاتها ومنطقها الأعمى إلى اليوْم !! .

إنّ (عَصْر النهضة) لا يعْني بالضرورة أبداً أن نرى الأكثرية الساحقة من فتياتنا المسلمات (أمهات المستقْبل) يجمحْن جموحاً رهيباً نحو الانفلات المطلق تحت شعار الحرّية ، وغيره من الشعارات التى تقرع آذاننا صباح مساء ، أو تَصْدم عيوننا وأبْصارنا ، كما لا يعني بالضرورة أن يتقابل هذا الانفلات بالترمُّت القاتل الذي يَحْجر على الفتاة عقلها وشعورها وكل كيانها ، ويحرمها من إنسانيتها ، وأيضاً تحْت شعار (المحافظة) !!! أَيَّةُ حرّية !!! وأَيَّةُ محافظة !!! .

فَكِلا الشعاريْن قد ضيَّعَ المجتمع أو يوشك أن يقضي عليه !! .

فَهَلْ من قَفْزةٍ ووثبةٍ عاقلةٍ نحو الاعتدال !!؟ قفزة لا تكون في المجهول .

الفصل الخامس

الحجاب وسَتْر العورة

هناك ضوابط أساسيّة في التربية الأُنْثوية ، منها الأدبيُّ المجرّد ، والماديّ .... ، وكلاهُما ينْبع من أَصْلٍ واحدٍ هو المعتقد ذو المنهج السلوكيّ ؛ فمن هذه الضوابط : الالتزام بسَتْر العوْرة ، والقَصْد مِنْهُ (أَمْنُ الفتنة) وحماية المجتمع من شرورها وآثامها وصيانتُه من مزالقها أو التردّي في دَرْكها .

وعَوْرةُ المرأة جميع بَدَنها ما عدا وجْهها وكفّيْها وذلك في الاصطلاح الفقيِّ الشَّرعيّ ، فقد أُثِرَ عن رسول الله « ﷺ » أنّه قال : لـ « أسماء بنت أبي بكر » – رضي الله عنها – حين رآها في ثياب رقيقةٍ : « إذا بلغت الفتاةُ المحيض فلا يصحُّ أن يَبْدُوَ منها إلّا هذا وهذا – وأشار إلى وجْهِهِ وكفّيْه » .

وهذه الصُّورة هي التي تَقِف فيها الأُنْثى لأداء فريضة الصلاة بين يديِ الله تعالى .

ويقول الله تعالى في هذا الصَّدَد : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيوبِهِنّ ﴾[1] ؛ والخمار هُو الغِطاءُ الّذي تجْعلَهُ المرأةُ فوق رأسها وشَعْرها ، وهُوَ غير الحجاب الذي يمنع الرؤيَة والبَصَر ، أو يُخفِّفه ، ومن ثَمَّ يُخْفي الوجْه (أيْ يحجبه) .

وحتى لا يبقى النَحْر مكشوفاً عارياً ، وكذلك العُنُق وما يلتف حَوْله من زينة الحُليّ ، أمر الله تعالى بضَرْبِ الخمارِ على (الجَيْب) ، والجَيْبُ هو فتحةُ الثوْب ما بيْن النَّحر والصَّدْر ، أو أعلى العُنُق .

وليس من موْضوع بحْثنا الدُّخول في جَدَلٍ فقْهِيٍّ ؛ أوْ تحليل ... يُحدِّدُ حُدودَ السَّتْر والحجْب ، طالما أنَّ أمن الفتنة الذي نعتبرُهُ إحدى وسائل حماية المجْتمع من شُرور التردّي والانحراف والرِّدَّة الجاهليّة ، وهُوَ الغرض المطلوب والهدف المتوخّى .

والتربية الأُنْثويَّة في أَمْنِ الفتنةِ هدفٌ يحمى الفتى والفتاة على حدٍّ سواء ، ولا يتوقّف على نوْع دون آخر ، ولا سبيل إلى إنكار ذلك ؛ وإلا دخلْنا في مماحكةٍ جدليَّةٍ يتحكّم فيها باعثُ الهوى والغرض ، وليس المنطق وواقع التجربة .

هناكْ نوعان من الجمال : المصطنع المتحدّي السافر ، والطبيعي المحتشم الملتزم .

أما المصطنع المتحدّي السافر فهو الظاهر المنتشر ، والأكثر عدداً ونفيرا ... ، والذى نسمِّيه (الفتنة المتحركة) ، في الشارع ...

---

(١) النور (٣١) .

والأندية .... والأماكن العامَّة ... والصالونات .... فَضْلاً عن المسابح والشواطىء . هيكليّته العامة : لباسٌ يكشف أكثر مما يَسْتُر ، وزينةٌ ومساحيق ... وعطُورٌ تَشُدّ حاسة الشم من على مسافاتٍ بعيدة ، وعُرْي يشُدّ حاسّة الْبَصَر فتكاد العُيُونُ تَخْرُج من محاجرها مُشْرئبَّةً .... ، واسترخاءٌ ولُيُونةٌ في نَبْرةِ الكلمة واللّفظ ، حتى لتكادُ الحروف ترقُصُ تَثَنِّياً !!! وشعورٌ كأسْنِمة البُخْت[1] قد لَعبَتْ بها أيدي المزيِّنين !!! وو ... إلخ .

أما الطبيعيُّ المحتشم الملْتَزِم فهو الأقلُّ الأقلّ ... ، والذي دَرَجَتْ عَلَيْه منذ أمدٍ قريبٍ بعضُ فتياتنا ، والذي نُسمِّيه (الزى الشرعيّ) ، لا يُلْتفتُ إلى صاحبتِهِ إلّا قليلاً ، حيثُما تواجدت ، سواء في ميدان العلم أو العمل أو قضاء حاجةٍ اجتماعية وضرورةٍ حياتيّة .

وهيكليَّتُهُ العامة : لباسٌ ساتِر سابغ محتشم (وإن بُولِغَ فيه أحياناً) ؛ ووجْهٌ خالٍ من أيّةِ زينة ، وعبارةٌ في الحديث العام والخاص مُنْتقاة ، ونَبْرةُ كلمةٍ غَيْر مثيرة .

والنَّفْسُ الإنسانيَّة (البشرية) وقد رُكِّبتْ بيْن نَزْعتيِ الفجُور والتَّقْوى . ﴿ **ونَفْسٍ وما سوّاها فألْهما فُجوُرها وتقْواها . قد أفْلح من زكّاها . وقد خابَ من دسَّاها** ﴾[2] تتأثّر و تجيش أمام هذيْن النوعيْن من الجمال ، الباديْين للعيان .

---

(١) البخت : بضم الباء وسكون الخاء – الإبل الخراسانية والأسنمة : جمع سنام . وشبه الشعر بها فى العلو .

(٢) الشمس ، من (٩ – ١٠) .

أمّا أوَّلُهما : وهو المصطنع المتحدّى السافر ، فإنه يُحرِّك (طبيعيّاً) جانِب الفجور في النفس ، ويثير كوامن الشَّهْوة ، فتتّقد كالنّار المتأججة في الصَّدْر ، وتَمْتد بالتالي سرياناً كاللهيب إلى كُلّ جارحةٍ في الكيان .

وأما ثانيهما : وهو الطبيعيّ المحتشم الملتزم ، فإنه يلامس برفق وحنانٍ جانب التقوى في النّفس ويدعو إلى الإعجاب والاحترام والتقدير ، وهَدْهدةِ غلواء النزْعة الحيوانية الفاجرة . .

وإن ردود الفعل هذه على الذات الإنسانية والنفس البشرية واقعية ملموسة ، مُدركة منطقاً وعقْلًا ومشاهدةً ، ولا مجال للمكابرةِ في مُغالطتها ... إطلاقاً .

ففي أي الجمالَيْن نأمن الفتنة ونَصُون الفرْد والمجْتَمَع ؟ .

أوَ ليس من ضرورة التربية الأنثوية أن نعتمد الأسلوب السليم والصراط المستقيم ، فنحفظ دنيانا وآخرتنا ، ونكسب (الفضل) في الأولى والآخرة ؟!! استقراراً وازدهاراً على الأرض ، وثواباً في جنات عدْنٍ ؟!! .

وقبل أن أُنهي كلمتي في هذا الصَّدد ، أوَدُّ أنْ أكْشف لطيفةً من لطائف الآية الكريمة ﴿ **ونَفْسٍ وما سوّاها** ...[1] **الآية** ﴾ إذْ يتصوَّر أكْثَرُ الناس أن قَوْله تعالى : ﴿ **قد أفْلح مَنْ زكاها . وقدْ خابَ مَنْ دسّاها** ﴾[2] ذو متعلّقٍ فَرْديٍّ ... ، وهذا قصورٌ في إدراك المعنى

---

(١) سورة الشمس (٧) .

(٢) سورة الشمس (١٠) .

العميق ، وسطحيّة في آختطاف الظاهر والتعويل عليه .. .

نعم ... يُفْلح من يُزكّيها في (ذاتِهِ) كما يَخيبُ من يُدَسِّيها ؛ وأَيْضا ... يُفْلحُ مَنْ (يحفظُ) على الذّات عدم إثارتها وإهاجتها من الخارج ، كما يَخيبُ مَنْ يُدَسّيها .

فالمسئولية في أَمْن الفتنة وضبط النَّفْس الإنسانية في إطار التزكية والفلاح تتمحْور بيْن الخارج والداخل ، بيْن المؤثِّر والمتأثّر – والله أعلم – .

* * *

الْعِلْم

لا نريد أن نرتد زمناً إلى الوراء ، فقد انقضت الحقْبة التى تحجَّرت فيها بعض العقول والنُفوس وتصلّبت في قُمقُم من الجهْل والظلمة ، وخالفتْ بالتقْليد والعُرْف فريضةً من فرائض الدِّين المتعلّقة بأطّراد النموّ الاجتماعي والتقدّم الحضاريّ ، فأخذتْ بحجْب (نُور العلْم والمعرفة) عن الفتيات (أمهات المستقبل) ومقوّمات الأسْرة ... .

فها هي ذي المسيرةُ تأخُذُ طريقها من جديد ، وتستأنِفُ الوثْبة ... ولكنْ أيّةُ وثْبة !!!؟ .

يقول (عليه الصلاة والسلام) : « طَلَبُ العِلْم **فريضة** على كُلّ مُسْلِم و**مسْلمة** »[1] .

وأيْضاً : أيُّ عِلْم !!!؟ .

كُلّ عِلْم يتّفق **وطبيعتها الأُنثويّة** ولا يتناقض مع **وظيفتها الأساسيّة** ، وأوّل العلوم ضرورةً : العلم الدينيّ الشرْعيّ ، وليْس في هذا أدْنى شك ، ومن ثَمّ عِلْم الأمومة وأصول التربية في مخْتلف متطلباتها النفسيّة والسلوكيّة ، ولها بعد ذلك ميدانُ العِلْم فسيحاً تَنْهل من ينابيعه ما تشاءُ وتَقْدر ، مما يؤهِّلها لخوْض معركة الحياة .

---

(١) ابن ماجه – مقدمة ١٧ . المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى مجلد ٤ صفحة ١٠ .

والوثبةُ المطلوبة لتدارُك الخللِ القائم في بنيان الأُسْرة والمجتمع ، يَجبُ أنْ تكون مدروسةً درْساً وافياً ، تتعهَّدُ مَنْهجها ووسائلها وغاياتها أيدي الخبرة والنوايا الطيبة ، حتى لا يكون من نتائجها الوقوع في مُسْتَنْقعٍ في الوحولِ والأوْساخ ، أو في رمالٍ متحركة ، أو يترتَّب عليها كسْر يصْعُبُ جَبْرُه .

وإني أرى أنّ الأوان في ضبْط هذه الوثبة لم يفُتْ بَعْد ، وأنّه لا يزال في الإمكان معالجة النقْص وسدّ الثغرات ، والتوفُّر على تنظيم المنهج العلمي العام للفتاة في مختلف التخصُّصات والاهتمامات والرَّغبات ، وتضمِينِهِ مُنْذ المراحل الأولى الأسُس التربويّة التي تُوازن بيْن (كيانها) و (وظيفتها الطبيعية) ، وبيْن (فريضة العلْم) .

ولعلَّ فيما قدّمناهُ في فصلْ :.(لماذا التربية) على لسانِ العلّامة : (ألكْسيس كاريل) والدكتورة : (ماريون هيلارْد) ، من نظرياتٍ استنتَاجيّةٍ صائبة ، وخبراتٍ علميّةٍ واسعة أصدق الرؤية (العلمية) على نتائج خلو المناهج العلميّة من قواعد التربية الأنثويّة ، وما تركه ويتركه ذلك على الأسرة وعلى المجتمع من سوءٍ وخلل .... ، وهما (أي العلّامة والدكتورة) مَن هُما في عقيدتهما الدينية وتقاليدهما الغربيّة !!! .

العمل

بيْن العمل ، كمبدأ وحقٍّ أساسي ، وبين الضرورة الملجئة إليه ، شوْطٌ طويل من المعاناة والمشادّات والمناظرات ... .

معاناةٌ نفسيّة واجتماعيَّة وماديَّة بيْن الزوجيْن في أكثر الزيجات !! .

ومشادّات وخصومات تُقَلِّل مِنْ فُرصِ استمرار العشرة والتوافق الحياتي ، وتؤثّر سلْباً على الأبْناء ... .

ومناظراتٍ ما تزالُ تحتلّ مساحاتٍ شاسعةً من أجهزة الإعلام وحيِّزاً مِن الوقْت وأعْمار الناس على غَيْر طائل ، وتُوحي بالشّك الدائم في سلامة البنيان الاجتماعي .

فالعمل كمبْدأ وحقٍّ أساسيّ من حقوق المرأة لا يُماري فيه آثنان ولا ينْتَطحُ فيه عَنْزان ، فهوَ من المسلَّماتِ البديهية التى نصّ عليْها القرآن الكريم : ﴿ **للرِّجال نصيبٌ مما اكْتسبُوا وللنِّساءِ نصيبٌ مما اكْتَسبْن** ﴾[1] ، وجَرَتْ بها السنة النبويَّةُ الشريفة ، وصَدَّقها الواقعُ التاريخي من خلال الممارسة ، ولقد ألمحْنا إلى بعض الأسماء والأعمال التي زاولتْها المرأةُ في العهْد النبويّ وفي عهْد الخلفاء الراشدين عندما تحدَّثنا عن ذلك في فصل (نماذج إسلامية) .

لكن العمل يأْتي من حيث سلّم الأوْلويات في الدَّرجة الثانية بعد الوظيفة الطبيعية للمرأة ، (وظيفة الزوجيّة والأمومة) ، حتى

(١) النساء (٣٢) .

لاَ يكون هناك أدْنى تَعارُضٍ ، ولتَسْتمُرّ مسيرةُ الحياة في ريحٍ رخْوٍ وانسجامٍ وهناءة ؛ ولا بأس أنْ نُشير إلى تقسيم النبيّ « ﷺ » العمل الأُسرىّ بيْن « عليٍّ » و « فاطمة » – رضي الله عنهما – فـ « علي » للعمل الخارجي ، و « فاطمة » لشئون البيْت .. .

ويَجب أن نتوقَّف عند ظاهرتيْن معاصرتيْن كِلْتاهُما تجتثُّ جذور غَرْسَةِ التربية المعوَّل عليْها في الإزهار والإثمار ، وإغناء المجتمع ... .

أولاهما : الانصراف الكلّي أو الجُزْئي عن لَبَن الأُمّ في الغذاء ، ولا مشاحة في أنّ هذه الطريقة (في الغذاء الأوّلي) تفْصِمُ نفسيّاً وصِحّيّاً وبدنيّاً بيْن الأُمّ ووليدها ، وتقطّع أواصر الصّلة (المبدئيَّة) بيْن ذاتين كانتا إلى أمدٍ قريبٍ ذاتاً واحدة .... ، والمفترض أن تستمرّ هذه الصلةُ !!! .

ونترك في هذا المجال الحديث المستفيض إلى أصحاب الاختصاصات ، الذين ما يفتئون يبيّنون وبمختلف الوسائل مساوىء هذه الطريقة في التغذية ، من الناحيتين الصحيّة والنَّفسيّة[1] .

وثانيهما : التعويلُ – أَيْضاً – في الحضانة والتربية إلى (أُمٍّ مُستأْجرة) ليْس في عَملها من وظيفة الأمّ الأصلية إلا شكليات خالية من مضامين الحب والحنان والعطف ، وغيرها من (مغذّيات) النَّفْس ومقوّمات الروح .

---

(١) تحدثنا عن ذلك في كتابنا (أولادنا في ضوء التربية الإسلامية) مكتبة القرآن .

وكأن (الوليد) من خلال هاتيْن الظاهرتيْن أُشْبه بِطِفْلِ الأنابيب الّذي كَثُر الحديث عَنْهُ في السنوات الأخيرة ... !؟ .

هنا – عزيزي القارىء – نتذكّر عُهُود الجاهليَّة الأُولى في اعتبار المرأة مُسْتَفْرغاً لقضاء الشَهْوة ، أو قضاء لُبانتها هي من الرَّجُل ... ، أوِ آعتبارها مَفْرخاً للذرِّيَّة ؛ لا أكثر ولا أقلّ . ونتساءَل : أيُّ أسْرَةٍ تنتظرنا بعد جيلٍ أو جيليْن ، وأيُّ مُجْتَمَع ؟

وإلّا فَلْنُدرك قيمة التربيةِ على حقيقتها .... ، والأُمومة ؛ ولنَجْعل مبدأ العمل في حَجْمه وعند حدوده .

الاختلاط

من أَخْطر الأدْوار التي تفشّتْ في مُجْتمعنا الإسلامي المعاصر ، انفتاحُ باب الاختلاط على مِصْراعيه ، وبشكْل هجومِيٍّ عَشْواي ، ثم آستغراقه مساحةً « ديموغرافيَّة » ، واسعةً في بيوتاتنا ، واستحكامه في النفوس والرءوس .

وتزدادُ خطورتُه فداحةً أنَّه تجلبب عند الأكثرين بجلباب « الحريّة » و « التحضُّر » و « العلْم » !!! ، وكُلّها شعارات تسْتفزُّ الوجدان في الإنسان ، وتَسْتثيرُهُ ليُواكب الرَّكْب الزاحف حتى لا يُنعتَ بالنَّقيض ؛ من « العبُوديَّة » و « التأُخُر » و « الجهْل » .

ولقد جَرَّ هذا البلاء الطارىء على واقعنا الأُسريّ والاجتماعي مصائب لا تُحْصى عدداً ، وويْلاتٍ جعلتْهُ بعد وحدةٍ وتماسُك بَدَدا ، وهزّت بعُنْفٍ وشِدَّةٍ القيمِ السامية والمفاهيم الجليلة الّتي تُسيِّجُ حَرَم الْعِرْض والشَّرف ، وتصُونُ اجتماع الجنسْين على صراط المودَّة والرحمة ، لا اللذَّة العارمة والشَهْوة .. .

ثم إنني حاولتُ من خلال عبارتي : (انفتاح باب الاختلاط على مصراعيه وبشكل هجوميّ عشْوائي ..) أنْ أَسْتدرك مقدَّماً ... ، إذ إن خروج المرأة من بيتها وحَسْب القواعد والضوابط الحائلة دُون خطره وأذاه ، ليْس مما يُنْكرهُ الإسلام أوْ يشجبه ، أوْ يسدّ منافذه ،

أو يُقمقِم من ثَمَّ (الأنثى) في حجْر محجور ، ويكتُم أنفاسها .... ، لأن ذلك تعطيل عن الحياة ، والحياة حق طبيعيّ .... أيضاً فالشّرْع الحنيف فيما قَعدَهُ من قواعد وحدَّهُ من حدود بالنسبة لهذا الخروج لم يقْصد طرفاً دون الآخر ، ولم يتوجّه إلى الأنثى ثم يُغفل الذَّكر ، بل آعْتبر كلا النَّوعْين هدفاً من أهدافه في حماية المجتمع .

كانَ خروج المرأة من بيتها في العهْد النبويِّ قائماً مَوْجُوداً ، ولكن في حُدوده الشَّرْعية والعقْلية ، بالإضافة إلى عنصر مهم جدًّا هو التربية التى تلبَّست الفرد المسلم قلباً وقالباً ، فعاشها في ذاته وكيانِهِ ، في وجدانِهِ وسُلوكِهِ ... ذكراً وأُنْثى ... .

والمسجد – أيُّها القارىء العزيز – ذروة مكانِ الاجتماع ولكن دون اختلاط ... ، فلقد كان للمسلمات المؤْمنات العابدات (جناحُهُنَّ) الخاص ، وصفوفهُنَّ الخاصة في العهد النبوي وبعده ، وما يزال إلى يَوْمنا هذا في الحرميْن الشريفيْن .

إن المسلمين والمسلمات يجتمعون لأداء فريضة الصلاة ، ولكنه اجتماع منظم لا يدعُو إلى ريبةٍ ولا يُيَسِّر سبيل فتنةٍ ، ولعل الحج هو الشعيرة الإسلامية التى يتراءى فيها الاختلاط ولكن الإسلام حرص على صيانة المرأة والحفاظ عليها . في جو بلغ فيه المسلمون الأولون حداً من التوقي ، وإشراق النفس ، ووضاءة الحس في الاحتياط من شبهات الاختلاط .

يُرْوى أَنَّ « عاتكة بنت زيْد »[1] – رضي الله عنها – ، وكانت من الصحابيات ذات دينٍ وخلُقٍ وجمالٍ وفصاحة ؛ تزوَّجَتْ من « عبد الله بن أبي بكر » – رضي الله عَنْهما – وهو أمير المؤمنين ، ثم ماتَ عنها شهيداً ، فتزوَّجها « الزُّبَيْر بن العوام » ، وكان غيوراً شديد الغيْرة ، فلما مَلكها قال : [يا عاتِكةُ **لا تَخْرُجي إلى المسْجد** !!!] ؛وكانت امرأة عَجْزاء بادنة ؛ فقالت : [يا ابْن العوّام **أتُريد أنْ أَدَع لِغَيْرتِكَ مُصلّى صلَيْتُ مع رسولِ الله « ﷺ » و « أبي بكرٍ » و « عُمرَ » فيه !!؟ قال : لا أَمْنَعُكِ .... .**

فلمّا سَمِعَ النِّداء لصلاة الصبْح توضأَ وخَرَجَ ، فقام لها في سقيفة بني ساعدة ، فلمّا مرَّتْ به ضَرَب بيَدِهِ على عجيزتها .... ، فقالتْ : مالَكَ ... !؟ قطع الله يَدَكَ ثُمّ رجعت .

فلما رجع من المسْجد قال : يا عاتكةُ ما لي لم أَرَكِ في مُصلّاك ؟ قالتْ : يرحَمُكَ الله (أبا عَبْد الله) **فَسَد الناس بَعْدك** ، الصلاةُ اليوْم في القيْطون[2] أفضل منها في البيْت ، وفي البيْت أفضل منها في الحجرة] .

إلى هذا الحدّ من التوقّي ، وإلى هذا الحدّ من إشراقة النفس ووضاءَة الحس في الاحتياط من شُبهات الاختلاط بلغت عاتكة ... ،

---

(١) بنت « عمرو بن نُفَيْل » وأخت « سعيد بن زيد » زوج « فاطمة بنت الخطاب » – رضى الله عنهم .

(٢) القيطون : المخدع : والبيت : مكان البيتوتة والمبيت .

حتى في السَّعْي إلى المصلّى ، وأيُّ مُصلّى ... ، إنّه المصلى الذي كانت – رضي الله عنها – قد احتجَّتْ بضرورة السَّعْي إليه متخطِّيةً رغبة الزُّبَيْر وغَيْرته ، لأنّها تَغْترف فيه من بركةِ الرسُول الأكرم « ﷺ » وبركة صاحبيْه الشيخَيْن – رضي الله عنهما – .

والصُّورة التي أَوْردْنا ، وإن كانت فرديّة تتمثّل في حادثة « عاتكة » إلا أنَّها تُعْطي من حيْث الواقع التاريخي عُمُوميّة شاملةً ، سيْطرتْ على كُلّ قطاعات المجتمع ، نابعةً من ضمير الأحْكام وأهدافها ، ومن إشعاعات التربية الذاتية التي تغلْغلتْ إلى أعماق الناس وسَرَتْ في عروقهم سَرْى الدَّم فطبعتْ بطابعها النظيف السامي بيوتهم ومحافلهم .

ولا نُحب أن نتوسَّع في عرْض جوانب التشوُّهات التي تُفسد علينا دُنيانا بسبب الاختلاط ، وتظهر في جسم المجتمع دمامل وفقاقيع ، تحمل القيْح والألم والخِلْقة المنكرة ... ، ولَعذابُ الآخرة أشَدّ وأكْبر !!! .

والرَّجْعة المطلوبة حثيثاً إلى الضَّوابط ، تَفْترضُ بمنطقيّةٍ واعية وَجدِّيَّةٍ حازمة أن نأْخذ بِمبْدأ الحدود الشرعيَّة المعْهُودة في الاختلاط ، مهما قيل .... !! ولْنَتَّخذ من مقولة « عُمر » – رضي الله عنه – عُنْواناً وشعاراً و ... دثارا ، حيثُ قال :

[إنّنا لا نَشْتري رضى النّاس بِسَخَطِ الله تعالى] .

فإنّ مما يرْضي الله سُبْحانه أن يستقيم خُلُقُهم على الصراط المستقيم ، فلا تزيغ بهم الأهْواء أوْ تُضلّهُم الْفِتَن ويتّبعوا غير سبيل المؤمنين .

اللِّباس

كُنّا قد عَرَضْنا لموضوع اللّباس و (الزِّيّ الشَّرْعي) عند الحديث عن عَوْرة المرأة ، وفصَّلْناهُ بَعْض التفصيل .

وهنا نعرض لبعض الأُمور مما يقْتضيه المقام وضرورة البحْث ؛ لأن الضوابط التي تحدَّثْنا عنها في بداية الفصْل وآعتبرناها أُسَساً في التربية الأنثوية ، منها ما يتعلَّق بالذاتِ من الداخل ، ومنها ما يتعلَّق بالخارج ... .

والواقع أَنَّ الزِّيَّ يُعطي لصاحبتِهِ – أَوْ صاحبه – حالةً نَفْسيَّةً مُعَيَّنة ، سواء من ناحيةِ شكْلِهِ أَوْ مادَّةِ صُنْعِهِ ونَسْجِهِ ، ولونِهِ أيْضاً ... ، ويُؤَثِّر بالتالي على الرائي والمشاهد .

تقول بَعض الدراسات النَّفْسية الحديثة بأَنَّ حُلِيَّ الذَّهَب ، خاتماً أَوْ سِلْسلة عنق أَوْيَدٍ .... ، إذا ما اتّخذها رجُلٌ للتَّجمُّل أو الزينة !!! تُعْطي ذبذبات مُعيَّنة تؤثِّر في إضعافِ (الهرمونات) الذكوريّة ، ويشْتد أَوْ يضعف تأثيرها بحسَب الحجْم والوَزْن .. .

وكذلك الناعم الملمس من الألبسة .. .

يا سُبحان الله !! .

ألا يَحْضُرُنا هُنا تَحْريم النبيِّ « ﷺ » التزيُّن بالذّهب للرجال ولبْس الحرير ؟! منذ مئات السنين ، وقبل أَنْ تَدْخل النّفس الإنسانية أدوار التحليل والتجربة والاختبار !! .

فالذهب أو الحرير إذا لم يُصادفا في (الأُنثى) هزمونات (ذُكورية) ، تفاعلا في ذَبْذَبتهما مع (أُنوثتها) وزاداها رقّةً على رقّة .

ولكن أَيْن ولماذا ؟

هنا نحبُّ أَنْ نتوقف مع موضوع الزيِّ وقْفة عقْل ومنْطق ، ولا نترك التساؤل يمضي في غير غايةٍ ولا هدف .

إن الغرض الأساسيّ من اللِّباس هُو السَّتْر والدِّفْء على الترتيب وليس العكْس ؛ ولْنَعُدْ إلى « آدم » و« حوّاء » ... .

لقد كان مقامُهما في الجنَّة ... ، حيْثُ خاطب الله سُبْحانه وتعالى « آدم » بقوله : ﴿ **إنَّ لَكَ ألّا تجُوعَ فيها ولا تَعْرى** ﴾[1] مما يُوحي بانعدام الإحساس البدني في تلك الحالة المرْحليَّة ... .

ثم عَصَيا أَمْر الله تعالى وأَكلا من الشَّجرَة التي نهاهُما عن الاقتراب منها ؛ فماذا حَدَث ؟

يقول سبحانه : ﴿ فلمّا ذاقا الشجرة بَدَتْ لهُما سَوْآتهما ﴾ – الأعراف – (٢٢) ويقول : ﴿ فَأَكلا مِنْها فَبَدتْ لهُما سؤآتُهما – طه – (١٢١) ؛ وإزاء هذا العُرْي الذي أَصابهما في جَسَديْهما بعد مخالفتهما أَمْر الله تعالى وأحسّا بنوازِع البَدَن ﴿ طفقا يخصفان عليْهما من وَرَق الجنّة ﴾ (الأعراف وطه) (٢٢ – ١٢١) ،

---

(١) طه (١١٨) .

لماذا ، لِيُواريا سَوْآتِهما .... ولَيْس بوَرقةِ التُّوت كما تَزْعم التوراة ولكنْ بـ (وَرَق) الجنّة ، بصيغة الجمع للدَّلالةِ على استغراق العَوْرة أكْثر مما يَظنُّ ويَتوهَّم .

ولْنَنْظر بإمعان وتَدَبُّر إلى قول الله في موْضِعٍ آخر ؛ .. .

يقول سبحانه في سورة (الأعراف) ، الآية (٢٦) : ﴿ **يا بني آدم قد أنْزلنا عليكم لباساً يُواري سَوْآتكم وريشاً** ﴾ .

فاللِّباسُ يواري السَّوْأة ويتعدّى حَيِّز العَوْرة ونطاقها ، كما أنَّه ما يتلبَّسُ البدَن والجسدَ كُلّه ، إلّا ما يُعَطِّل حركة العمل والرؤية ، وتأتي كلمة (الريش) بعد هذا لتؤكد المعنى وتؤَيِّده ، وتضيف إليْه معنىً آخر ومقْصداً جديداً هو التدفئة ؛ فالريش يكسُو جَسَدَ الطائر كُلّه بلا استثناء ، وهو يحميه من البرْد والزَّمْهرير .

فإذا كُنْت أيُّها الإنسان لا تدْري الهدف ، أو تعطّلَتْ لديك الرؤية السليمة بِفعْل تشويش الهوى .... وجاذبيّة الحيوانية ، فإنّ في (ريش) الطائر لَعِبْرة !!! .

والزِّيُّ(شَكْل) اللِّباس ، تَفنَّنتْ أيدى الصُّنّاع في تصويره ورسومِهِ وألْوانِهِ ، ثم أضحي هُو الغاية بعد أنْ كان الوسيلة ، وآستعْبَدَ النّاس ... .

لقد دَرَجَتْ مُنْذُ أعْوامٍ قليلةٍ (مُوضة) : « الميني جوب » ... وعجباً لأمْر هذه (الموضة) ؟!! .

هل هي ضَرْبةُ لازبٍ ؟ أم قَيْد ، لا فكاك منه أوْ لا ينْكسر ؟!! .

إن رجُلاً مثل « كريستيان ديور » ، أو غيره ، أو سيِّدةً واحدةً ... ، هم الذين يَضَعون (التصاميم) لِكُلّ شتاءٍ وصيْف ، ويُبدِّلون ويَخْتارون ، ثُم يُطلقُون (تقليعاتهم) ، فتأخُذُ طريقها إلى الأسواق ، فتتلقّفُها الأيْدي بشوقٍ ورغبةٍ وتلهُّف ، ويقلّد الناس بعضهم بَعْضاً .

من غير أن يتحرّك فيهم عِرْقٌ من منطق أو مُسْكَةٌ من عقْل ...

والدليل ... .

أن (موضة) : [الميني جوب] استغرقت مساحةً واسعةً من قطاعات المجتمع ، وتبعها فتياتنا وبناتنا ونساؤنا ... ، وإنك لتدهَشُ دَهَشةً بالِغة حين ترى إحدى اللّواتي يرتدين هذا الزيِّ تُغَطي ما آنْحسَرَ من ثوبها عن ركبتيْها بـ(فوطة) أو (منديل) أو أي شيء آخر ، حين تجْلس ... .

ونتساءَل : ما الّذي يَقْسِرُك على هذا الصنيع ؟! ترتدين [الميني جوب] تقْليداً ، ثُمَّ تغطين !!! . ما هذا التناقض الفاضِح الذي يَحكُم عليْك لا لَكِ ، إنَّه يحكم ببلادة الحسّ والإدراك ، وقُصُور في الإرادة والوعْي ، وإمَّعيَّةٍ تقْضي بالاعدام المقام على استقلاليَّة الشخصيَّة .

وهذه (الأزياء) .... تتحكَّم فيها نزعة (الفتنة) الجاذبة ، أكْثر من عُنْصر (الأناقة) ، لأنها تعتمد على إبراز معالم الجسد ، ومواضع الإغراء منه ، خصوصاً مع فَصْل الصيْف حين يُحْتَجُّ بالحرارة القائظة

على التعرّي والتخفيف ، وكأنّه لا سبيل إلى الابْتراد إلا بالفتنة !! ووأد الحياء !! .

ومما نراهُ مُستَهْجناً أيْضاً في موضُوع اللّباس أنّنا نشاهدُ تناقُضاً بيِّناً ، فلا نُحسُّه ، ثم لا نُدرك ماهيَّة المغالطة فيه ... .

من ذلك رُؤية أُمّ في الطريق العام وقد احتشمت في زيِّها إلى حدٍّ ما ، أو اكْتمل في رسمِهِ الشرعيِّ ، وإلى جانبها ابنتها مكشوفة الذراعيْن والنّحْر ، وعبثت في شعْرها يدُ المزيِّن ، وبرزتْ مفاتن جسدها من ضيق ما تلبس أو شفافيته ... .

إنَّ أيَّة أُمٍّ وقد تجاوزت سِنّ الخمسين – مثلاً – تَدْخُل في مَرْحلة اليأس ، وهذه في الاصطلاح الطبي تعني انقطاع العادة الشهرية .. (اليأس) من الحمل ، وآستْجراراً تعني اليأس من الزواج إنْ كانَتْ أيّماً ... .

والفتاةُ التي شاهدناها مع الأُم هى مدعاة رَغْبةٍ ... وفِتْنة ... فأيُّهما أوْلى بالسّتْر ؟ وأيُّهما أولي بالزيّ الشرعي ؟! فضلاً عن طلبه في كليْهما .

فهلا أدركنا لزوميّة ضابط اللباس والزيّ الشرعي في المسئولية التربوية ، ورعيْنا ذلك حق رعايته ، وعوّلنا بإخلاصٍ وجدّيّةٍ على الأخذ بِهِ حفاظاً على أُسَرِنا ومجتمعنا ، واعتمدناه قاعدة من قواعد النهوض !! .

الزِّينة

قرأْت فيما يُشبه الإحصاء ، في أوائل الخمسينات ، عندما كانت (القاهرة) – عاصمة البلاد – لا تتجاوز المليونيْن من السكان ، أن نِسْبَةَ استهلاك أصابع أَحْمر الشفاه فقط .... قُدِّرت بخمسة ملايين جُنيه !!!؟؟ .

ولا حاجة بنا إلى التعليق حول ازدياد عدد السكان ، ومرور أكثر من ثلاثة عقودٍ من السنين ، ونسبة المستهلكين .... لنرى إلى أي مدى يُستنْزف المال الذي هُو شريان الحياة على ما لا طائل تحته من أدوات الزينة ، وتنوّعها الذي يزداد ويتكاثر ، وتَتفنّن في آبتكارها عقول ونفوس وأيدي الخبراء المتخصصين !!! .

وأيُّ خُبراء ؟! إنّهم – ولا شَكّ – أعوان إبليس وجُنْده المسخَّرون للإغراء والاحتلال .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ولا تَبَرَّجْن تَبرُّج الجاهلّية الأولى ﴾[١] .

في خطابٍ للمؤمنات المحصنات ، القانتات العابدات ... ، السّالكات درْب الحياة على بيّنةٍ من نور الإيمان والهُدى ، حتى لا تلتبس عَلَيْهنّ السُّبل فُهُنَّ القدوة ، والله تعالى يريدهُن (معْدن)

---

(١) الأحزاب (٣٣) .

خَيْر ، و (حِصْن أمانٍ ، و (مَوْئل) تقويم وإصلاح ، يريدهُنّ (زوْجاتٍ) يعرفْن حقوقهنّ وواجباتِهنّ ، و (أمهاتٍ) يرعيْن بكُلّ أمانةٍ وإخلاصٍ نَبْتَةَ الحياة التي آئتمِنَّ عليْها ، و (مربّياتٍ) لا يَغْفلن عن دورهِنَّ في بناء كيان الأُمّة بناءً أَصْلُهُ في أعماق القلُوب وفرعُهُ في السّماء ، طيِّب الثّمر ، شهيِّ الطعْم ، زكيّ الرائحة ، باسط الظِّل ، ممتدّ النُّور .

يريدهُنَّ سُبحانه عقْلا نيِّراً وعاطفة صافيةً صادقة ، غَيْر متأثّراتٍ بالزينة والزُّخْرف ، والبهرج الزائف الزائل .

ويريدهُنّ على لسان رسولِهِ المصطفى ، وحبيبه المجتبى « ﷺ » غَيْر مُتَنمِّصات ولا واشماتٍ ولا واصلات .... ، وغير مائلاتٍ مميلاتٍ في الطُّرقات بعُطورِهِنَّ الفوّاحة وكعُوبِهِنّ التي تدُقّ الأرض ليُعلم ما خفي من زينَتِهِنّ .... ، وشُعورِهنَّ التي هي كأسْنام البُخْت !!! .

إنّ الجاهليّة الأولى .... وجاهليَّة القرْن العشرين ، وكُلّ قَرْنٍ تطغى في (الزينة) على (الحقيقة) سواءٌ في الصورة والحكْم .

﴿ **ولا يُبدين زينتهُنّ إلا لبعُولَتِهِنّ ... الآية** ﴾[1] .

وكما هو عجيبٌ أَمْرُ المسلمين عموماً في تنكُّب شَرْع الله وأحكامه وهدايتِهِ ، فإنه من الأعجب والأغرب أمر المسلماتِ على الخصُوص .... .

---

(١) النور (٣١) .

فالمرأةُ المأمورة أن لا تبدي زينتها إلا لِزَوْجها بالإضافة إلى العناصر التي ذُكِرَت في الآية الكريمة ، كأَنّ في أُذَنَيْها اليوم وَقْراً .... ، فهي لا تتزيّن إلّا لغيرْ هؤلاء ، فإذا أرادت الخروج من بيْتها لأمْرٍ ما أو لزيارةٍ قامتْ إلى المرآة واصطبغتْ بكُلّ فتنةٍ ... ، ومن الملاحظ أنّها إذا كان خروجها لمجتمعٍ يَحْفَلُ بالجنسيْن من الذكور والإناث ازدادت زينةً ، (لتنافس) الأُخريات ، ولتكون (أحظى) عند الرجال ، إرضاءً لكبرياء غرورها الأجْوف !!! .

أيتها المسلمة : فتاةً كُنْتِ ، أو زوجةً أو أُمّاً ... .

إن مجتمعك اليوْم في وضْع عسير ومستقْبل خطير ، لا تتداركُه إلا يدك في (التربية) والتوجيه وحُسن التخليق والتكوين لعناصر البناء .

الفصل السادس

دُمْيَةُ الْعَصرِ

حين كُنْتُ أقرأ السِّيرة النوية ، مراراً وتكراراً ، كُنْتُ أتوقف فيما أتوقف عنده – مع دُمى « عائشة » – رضي الله عنها – التي حملتْها معها إلى بيْتِ النبوّة ، أو (عرائسها) كما قيل في ذلك ، تَدْليلاً من الراوين على صِغر سِنّها حين بنى بها رسول الله « ﷺ » . . .

فكُنْتُ أَذْكُر طفُولة البنات حين كُنَّ يصنعْنَ من بعض قطع القماش أشكال « دُمىً » و « عرائس » ، ويبدو اهتمامُهُنَّ بهذه الأشْكال مُنْصبّاً على ناحيتيْن : شكلاً وموضوعاً ، أما (الشّكْل) فمن ناحية الرَّأس حين يكْسينَهُ شعراً مختلفاً ألوانُه ، ويُسَرِّحْنَهُ تسريحات شتّى ، ويرسُمْنَ الْفَمَ باللَّوْن الأحْمر ، وكذلك الوَجْنتيْن ... ! ثم يَخططْن الحواجب بدقّةٍ وآعتناء ، ويجمِّلْن كل ذلك قدْر استطاعتهنّ ومعرفتهن .

وأما مِنْ ناحية (الموضوع) فيتخِذْن لها ما يُشْبه الفِراشَ والدِّثار والوِسادة ... ؟! فإذا مَلَلْنَ (اللَّعب) وَضَعْنَ تِلْك (العرائس) في

أحضانِهِنَّ وربتْن عليها بأيديهِنَّ تربيتاً خفيفاً ، وكأنّهُنَّ يُساعِدْنها على النَّوم والإخلاد لِلرّاحة بعد عناء المداعَبَة والملاعبة ، ثم يضعْنها في فراشها وينصرفْن عنها إلى أَعْمالِهِنّ !!! .

وهذا قَبْل أن تَنْتَشر الدُّمى المتقنة الصُّنْع ، الجاهزة في حوانيت الألعاب والتَّسْلية ، والتي تزداد مع مرور الزَّمن خبرةً في الإعداد واكتمالاً في الإتقان ، إذ منها اليوْم الضاحك والباكي والناطق بكلمتيْ (بابا) و (ماما) ، والسائر خطواتٍ ... ، أو التي تقفل العينيْن عند التمدُّد وتفتحهما عند الجلوس أو الوقوف .... إلى آخر ما هُنالك من ابتكاراتٍ واهتماماتٍ وتطورات .

وممّا هُو جدير بالملاحظة في هذا الشّأن أنّ الفتاة التى (تلْهو) بدُمْيتها لا تكتفي لها بزيٍّ واحدٍ بل تتخذ أكثر من لباسٍ ، تضعُها جميعاً في عُلْبةٍ ، أو غيرها ، بترتيبٍ وعناية ، ثم إنها إذا أرادت أن (تُغيِّر) لدميتها ثَوْبها ، فلا تنزع عنها ما تُلْبسها بحضور الحاضرين ، بل تنْتحي بها جانباً ... !؟ .

وأيضاً .... ، فإنها تتخذ لها أثواباً داخلّية ، شأن الأحْياء !!! .

إذاً ... فالدُّمى ، أو العرائس ، قديمةٌ جدّاً ، ومعرقة في التاريخ .... حتى من قَبْل (دُمي) « عائشة » – رضي الله عنها – استمرّتْ قروناً وأجيالاً ؛ وما أظُنُّها نبتتْ فكرةً في رأس إنسانٍ إلّا من خلال نُضُوج مفهوم الأُمومة ، وما سُمِّيتْ (عرائس) إلا بحكْم المنطق الحياتي الذي سوْف تَؤول إليْه كُلّ فتاةٍ يوْماً ما ، يوْم تكون (عروساً) عِنْد الزفاف .

لكن هذا المفهوم الحياتيّ الأصيل - في الموضوع والشّكْل - في غَرْس (رسالةِ الأُمومة) في قَلْب الفتاةِ ووجْدانها ، منذ بدء الوعي والتفتّح على الدنيا وأشيائها ومسمّياتها ، ثم الاستعداد الذهني والعقلي لمرحلةٍ حتميّةٍ لهذه المهمة بالزواج ، وإضفاء طابعٍ من الجمال المصطنع لامتلاك قلب الزَّوْج وعقله ، بالزينة وغيرها .

هذا المفهوم كان يفْقد من خلال الخطّ البيانيّ للإنسانية ذروة الصّعود وبلوغ القمم أحياناً ، فلا نراهُ إلّا هابطاً منحدراً ، وذلك عِنْدما يُهْمل (المحتوى الموضوعي) ، ويَغْفل عن (الرسالةِ الأصيلة) ، ولا يرى في (الأنْثى) إلا جانب (الشّكل) !! .

الجانب الذي يثير الغرائز الحيوانية ، وجماع الشهوة ، ويُغطّي بدخانه الأسْود ، ولَهيبه الأحمر ضوء الحقيقة الإنسانية ، وفضيلة الرسالة .

ولسنا في معْرض الحديث المطوّل الشامل عن الأُمَم أو الفتراتِ التاريخيّة والحقب الزمنيّة التي تدنى فيها الخط البياني بالنسْبة إلى فقدان التوازن في النظر إلى كيان (المرأة) .

ويكفينا أن نَعْرِضَ لواقعٍ تاريخيٍّ واحد للتدليل على ذلك ، فالْقَصْر الروماني بقانونِهِ الشهير !!؟ وحضارتِهِ الرائعة . كما يُدَّعى ويُقال - رغم تبوُّئه في التاريخ القديم ، قبل الميلاد ، مركز الصّدارة بيْن الأُمَم القديمة ، الفارسيّة واليونانية والفرعوْنيّة .... ، قد وقع في أُحْبولةِ اللّذّة وشراك الشَهوة ، من حيْث (زيّن) له الشيطان سُوء عمِله ... ، فاتّخذ من جَسَدَ المرأة تمثالاً ومثالاً !!! .

(تمثالاً) يعكف عليْه ويحتذيه وينْحت أجزاءه الشكليّة بدقةٍ وعناية ، (ويزيّنه) بكيل براعةٍ ، حتى سُمِّي هذا العمل (فنّاً) ، زوراً وبهتاناً ، و .... افتراءً !! .

كما اتّخذه (مثالاً) في واقع دُنياه ، ومناحي معاشِهِ وحياته ، في عُرْيٍ .... وزينةٍ ... ، وحليٍ ... ، في البيوتِ ... ، وفي القُصور .... ، والأنْدية والملاعب وكُلّ مكان .. .

وتَحضُرُني قِصةُ أسْر (زَنُوبيا) ملكة (تَدْمُر) ، فقد قيل إنها بعد محاربتها للرومان ، ووقوعها في الأسْر واقتيادها إلى (رُوما) قيّدوها بسلاسل ذهبيةٍ من باب الإكرام لمقامها الملكيّ ، هكذا تروي لنا كتب التاريخ .... ، غَيْر أن الواقع المستخلص من الحادثة لا يَعْدو حقيقة (الزينة) !!! ، فقد كانَتْ (زنوبيا) على جانبٍ عظيمٍ من الجمال الفاتن ، وكانت ترتدي إذْ ذاك الزيَّ الروماني ، الذي يكشف عن مفاتن الجسد أكثر مما يَستُر ، فما زادها القيْدُ الذهبيُّ (هيبة مقام) بقدْر ما زادها (فتنةً) وإغراءً ، وأضْحتْ بهذا التصرُّف (مثالاً) ... ! وهذا ما أرادَهُ الرومان ، بحُكْم المفهوم المألوف والعُرْف المتّبع لا أكثر ولا أقلّ .

والعصْر الحالي ، عَصْر القرْنِ العشرين بحضارتِهِ المادّية وتفوُّقِهِ العلمي نرى أن الأنثى ككيانٍ إنسانيّ نادراً ما تحْظي في الفكر العالميّ عامّة بمختلف وسائله وأساليبه في الإعلام والنشر والتوجيه ، بقسطٍ من الاهتمام لحقيقة دَوْرها ورسالتها في الحياة .

لقد أُغْفِل (الموضوع) أو (المحتوى) إلى حدٍّ كبير ، وعُكِفَ على (الشَّكْل .... ، إذ طَمَتْ دُور الأَزْياء ، وتعدّدت مصانع الزينة ، وأنتجتْ مختلف الابتكارات ، وعمّت البلْوى ... .

وإني لألحظُ أحياناً ما يُقدَّم لِلأُنثى من غذاءٍ فكريّ وعقلي وعاطفي من خلال المجلّات الخاصّة بها - كما يُقال ويُعلَن - فأجد أبواب الاهتمام بالشَّكْل من ناحية الأناقة والزينة والرشاقة وغيرها ، تُغطّي أكبر مساحةٍ ... ، وقليلاً ما تستخلص (الأنثى) دَسَماً ، بل نجد أكثر المعروض سُمّاً ناقعاً

ولقد راج مألوف (دُمية العصْر) عُرْفاً وتقليداً ، وسرى بحُكْم قصر المسافات وسُرْعة المواصلات في شَتّى أرجاء العالم ، فما من مبْتكرٍ مُسْتحدث إلا ونراهُ قد بلغ أقصى الأرض في سُرْعة البْرق ...

ومُسِخَتِ (الدُّمية) أَيْضاً في صورة (وسيلة) من وسائل الإعلان لترويج أيّ بضاعة ، ومطلق صِنْفٍ من الأصناف ، مُسْتَغِلَّةً الصُّورة من جوانب الإثارة الجنسيَّة ، فتبدو في ذلك محشورة حَشْراً من غير داعٍ ولا ضرورة ، وما عليْك لملاحظة هذه الظاهرة سوى مشاهدة إعلان واحد في التلفزيون أو الجرائد والمجلات !!! .

أيُّها المجْتمع !! قِفْ .... وٱنْتَبِه !

نخاطب (المجتمع) ككُلٍّ لأنَّ المسئولية ليست فَرْديّة فقط ، ونخاطب (المسئولين) عن هذا المجتمع لأن بيدهم سلطة التنظيم وسلطة التَّنْفيذ ؛ كما نخاطب في (الفَرد) – أخيراً – ضميره الاجتماعيّ ككائنٍ حيٍّ متفاعلٍ في محيطه الخاص والعام ، في نطاق الأسْرة الصغيرة والأُسْرة الكبيرة ... .

نطالب بجديّة وإصرار وحزم ؛ وصدقٍ وإخلاص ... بوقفةٍ مراجعةٍ للتاريخ – مدرسة الأُمم والشعوب – ونظرةٍ فاحصةٍ إلى الواقع مجرَّدَةٍ عن الهوى والأنانيّة ، ومَوْصولةٍ بالله عزّ وجَلّ ، ترتبط فيها الدنيا بالآخرة ، وهَوْل يوم الموقف والحساب ، حيثُ تُجزى كُلّ نَفْسٍ ما كسبت !!! .

لقد هبَّ إعصار (التقدُّميّة) علينا مُنْذ أمدٍ ليس بالبعيد ، وفي غفلةٍ منا عن عقيدتنا ونظامنا ، عن مقوِّمات وجودنا وتميُّزنا .... ، كمن يبني بنيانه على شفا جُرُفٍ هارٍ .... ، أو يتخلّى عن حِصْنه ويقف في العراء .... ، أوْ يخلع عنه ما يقيه الحرّ والقرّ .... ، فكانَ بهذا أَهْون على موجة الريح العابر فَضْلاً عن الإعصار المتلاحق العاتي .

وتحت شعار هذا الإعصار ، وضَغْطه وفُنونِهِ انضوتْ أُسرنا وبيوتنا ، فإذا نحن بعد أقل من نصف قرنٍ من الزمان خليط من الناس ليس لهم في ذواتهم وأفرادهم من الإنسان إلا شَكْله ، ومن القيم إلّا

رسمها التاريخيّ للذكْرى فقط ، حروفٌ جامدة وكلمات متحجِّرة لا تمسُّ القلُوب ، ولا تخالط الوجدان .... .

وإذا بنا أيضا حشْدٌ بَشَرِيّ كقطيع ضَلَّ سبيلَهُ وتاه في مهامِهِ البيْداء ، ليس له (راعٍ) يقودُهُ ويهديه سواء الصراط ، ويبلغ بِهِ غاية الأمان والاطمئنان .

أيْن النظام الواحد لِلأُمَّة الواحدة ؟ .

وأيْن القيادة الواحدة ؟ .

أخي المسلم وأُختي المسلمة :

لا نُريد أن يَجْمح بنا الخيال أو تشتطّ بنا الكلمة ، أو نسرحَ مع السارحين في أوهام الأحلام ، أو نسعى وراء المستحيل ... أبداً ، ولكننا « **أمّة** » في الحقيقة !! تاريخاً وواقعاً ... .

أمةٌ لها « **كتاب** » ؛ ينتظم كُلَّ شئون الحياة ، ما فرّط فيه من شيء ينبثق نظامه عن معتقدٍ فطريّ سليم لا يزيغ ولا يضلّ ، لا يُكبل العقل ... ، ولا يحجر العاطفة ... ، ويتّسق في اعتدالٍ واتّزانٍ مع مسيرة الإنسان على دروب الحياة ، رُقيّاً وإبداعاً .

وأمةٌ ، لها « **قيادة** » .... ، حيّةٌ في القلُوب المؤمنة ، وليْست مجرَّد شطحةٍ صوفيّةٍ تستلهم الصلاة عليْها والتسليم في انكبابٍ عاطفيٍّ مجرّد !؟ .

و« محمد بن عبد الله » – صلوات الله وسلامهُ عليه – قائدُنا وأُسْوتنا ، ورائدنا إلى الحق وإلى الجنّة ، إلى سعادة الدنيا والآخرة .

ولا بُدَّ من فَهْم شخصّيته – عليه السلام – على هذا الأساس ، سواء كُنّا قاعدة اجتماعيةً عريضة ، أوْ مَسْئولين على مقاعد السُّلْطة .

فِلكُلّ مِنّا مَوْقفه بيْن يدى الله يَسْأَلُه عمّا آسْتَرْعاه ؛ ولنتَصوّر هذا الموقف !!! بكُلّ المشاعر والجوارح ، بكل الإحساس المادّي والمعنويّ ، وفي تَجرُّدٍ خالصٍ عن طينِ الأرض .... .

أخي المسلم وأختي المسلمة :

لِنَنْتبه أن دَوْرة الحياةِ مستمرة ، وأن تعاقُب اللَّيْل والنهار قائمان أبدا ، فَلْنبادِر إلى العمل الإصلاحيّ المثمر ، ولْنتّق الله في أُسرنا ومُجتْمعنا بما ميّزنا الله تعالى به ، ولْنَرْتَفِعْ إلى المقام الذي بوأنا إياه ... ، قَبْل فواتِ الأوان .

إن المنحنى خطير ، والمفْترق أشد خطراً وأعظم ضرراً ، كما لا نرتابُ في أننا نشكو سُوء الواقع ، ونألم من مرارتِهِ ، فهل أدْركنا إلى أين المصير !!؟ .

الفصل السابع

كلمةٌ أخيرة :

لا بدَّ من كلمةٍ أخيرة نختم بها البحْث الذي يسَّره الله تعالى لنا ، وأفاضه عَلَيْنا من فُتوحِهِ ، والذي نَرْجو أن يكون وافياً مقبولاً ، وأنْ يُؤْتي أُكُله بإذنِهِ سُبْحانَه .

نتوجه بهذه (الكلمة) إلى رُوّاد الفكر والتنظيم من دُعاةِ اليقظة والنهضة الإسلامية المعاصرة ليوجّهوا قِسْطاً كبيراً من جهودهم نحو الفتاة المسلمة ، لأنها بالْفِعل وفي الحقيقة مرتكز ومحْور البناء الأُسْري ؛ ثم لا يَسْتغرقهم العمل الفكريُّ والتنظيميّ ، فَيَصرِفهم ذلك عن التوجُّه إلى الأساس نحو السطحيّة ، كما هو حاصلٌ ، ومُشاهد .

إن (المكتبة الإسلامية) زاخرةٌ بالبحوث والدراسات ، وأكثرها من حيث الموضوعيّة والعُمْق جيِّدة طيبة ، تَسْتلهم الصِّدق في الكلمة ، وتدُور مع الكتاب الكريم والسنّةِ الشريفة ، فلا تعدو عنهما ؛ ولكنها تُعْطي آهتماماً أكثر وأكْبر جانباً واحداً من الكيان البشري المزدوج ، فتُعطي الذَّكَر أكثر مما تعطي الأُنثى .... .

ولئن توجَّهَتْ في أفكارها نَحْو (المسْلم) من غير تمييزٍ بيْن الجنسيْن في أكثر الأحيان فإنّها لا (تخصّص) في مسئوليّة البناء ، أو (تحدِّد) الواجبات ... ، أو (ترسُم) إطار التّبعات ... ، في تمايُز يبدأ من حيثُ المهمّات النظريّة مُنْفصلاً ، وينتهي في بُوتقةِ الأُسْرةِ مُتّصلاً متكاملاً .. .

وكثيراً ما نجد في (المكتبة الإسلامية) كَمًّا هامًّا ووافراً من البحوث الأُنثوية ، فيما يتعلّق بالمرأةِ المسلمة ، أو الفتاة أو الزوْجة .... ، ولكنه في أكثريّتِه الساحقة لا يتناول (العُمْق) المنْشود ، فلا يعتبرها من حيثُ القيمة الحياتية لدى الأُمم ، وخاصةً أمتنا الإسلامية ، نُقطة الارتكاز ، وأن وظيفتها التربوية على الأرض أهم وأعظم بكثيرٍ من وظيفة الرجُل ودَوْره .

إن بيْن كلمتىْ (الأُمّة) و (الأمّ) أكثر من وشيجة ... ، إنهما من حيث اللفظ الظاهري ومادَّة الحرْف واشتقاق اللغة تنمّانِ عن وحْدة الأصْل .... .

وهلا لاحظْنا – مثلا – تاء (التّأنيث) في كلمة الأمّة ، وما يُمكن أن تحْمل من مدلولٍ ومعنى ؟!! وهلّا لا حظنا أن كلمة (الأمّ) اسمُ مؤنّث معنوي !! .

وكذلك (الأرض) أُمُّنا جميعاً ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكُم ومنها نُخرِجَكُم تارةً أُخرى** ﴾ !! و(السماء) التى جعلها البارى سبحانه فوقنا سقفاً مرْفوعاً ، وقدّرها سبْعاً طباقاً !!! وزينها بمصابيح

رجوماً للشياطين ، وعلامات للبشر ﴿ **وبالنجم هُم يهتدون** ﴾ !!! ، وأيضاً (الشمس) أُمّ الكوْن التي وضعت فيها يد العناية الإلهية سِرّ البقا والنّماء والاهتداء لكُلّ الأحياء !!! ؟ .

هلّا لاحظنا الأُنثويّة في كل هذا معنىً واسماً ، وحقيقة الأمومة ؟! أيضاً ... .

عزيزي القارىء :

لابُدّ من إدراك قيمة التربية للفتاة ، من خلال العَرْض ومن خلال الممارسة الفعلية والحياتية في دُنيانا .

وأسأل الله العلي القدير أن يوفقنا دائماً وأبداً لما يحِبُّه ويرضاه ، وأن يهدينا سواء السبيل ، وأن يُبَصِّرنا بـ (فضل تربية البنات) على أساس متين من الدين القويم ، ويسدّد خطانا على الصراط المستقيم ؛ إنه على ما يشاء قدير .

أخي القارىء المسلم :

﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[1] هكذا أوحى الله إلى نبيه « محمد » ﷺ قرآنا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

---

(١) الرعد (١١) .

وتلك قاعدة القواعد ، وأس الأسس .... ولقد تغيرت نفوس المسلمين ﴿ وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ﴾ فتبدل حالهم إلى ما هم عليه !!، وما نراه ونلمسه !! .

والنفس عقلٌ وحس .... ، إدراك ووعى وشعور متجاوب فلا نريد أن تَظَلَّ الكلمة العاقلة الواعية من غير مضمون حسّيّ متفاعل ، فإلى متى تبقى كلماتُ المصلحين والدُّعاة (المخلصين) جامدة الحروف ، ميتة الرسم !!، إلى متى ؟ .

إذاً لابُدّ من التَّغْيير بانقلاب نَفْسيّ من الداخل يتفاعل مع (بطّاريّة) الوجْدان ، وحرارتها وشُحْنتها ، كْي يُغَيِّر الله ما بنا .... ، من تقهقُرٍ وتفتُّتٍ وتَشتُّتٍ و .... ضياع .

.... ولْنَبْدأ بتربية البنات ، لنكْسب الدنيا والآخرة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المؤلف في

١٥ رجب ١٤٠٤ هـ

الموافق ١٧ إبريل (نيسان)

فهرس الكتاب

الموضوع | الصفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

★ ★ ★

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٣٣/١٩٨٥م

مطابع فتحى الصناعيه

٥٤ شارع بورسعيد ـــ السواح ـــ الأميريه

تليفون ٩٢٦٢٢٨٩ ـــ ٩٢٦٩٧٣

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة - ت : ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١



١٠٠ قرش